كامل كيلانى

قصص علمية

فى الاصطبل

دار المعارف

كامل كيلانى

قصص علمية

فى الإصْطِبْل

١- مَسْلاة (كوميديا) فى الاصطبل ٢- عالَم الاصطبل

الطبعة التاسعة

دار المعارف

تمهيد

يَسُرُّنى أَنْ أُهْدِىَ إِلَيْكَ — أَيُّها الْقارِئُ الصَّغِيرُ — طائِفَةً مِنَ الْخَواطِرِ الْمُبْدَعَةِ الَّتِي خَلَّفَتْها لَكَ مُنْشِئَةُ هٰذِهِ الْقِصَّةِ .

وَهِيَ — فِيما حَدَّثَنا الثِّقاتُ الْأَثْباتُ (الْأُمَناءُ الْمَوْثُوقُ بِهِمْ) مِنَ الرُّواةِ الَّذِينَ نَقَلُوا عَنْها تِلْكَ الْخَواطِرَ الشَّائِقَةَ — فَرَسٌ مِنْ أَذْكَى الْأَفْراسِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَعْتَزُّ عالَمُ الْإِصْطَبْلِ كُلُّهُ بِنَجابَتِها وَأَصالَتِها، وَتَفْخَرُ الدَّوابُّ جَمِيعًا بِطِيبِ عُنْصُرِها ، وَشَرَفِ أَرُومَتِها (كَرَمِ أَصْلِها ، وَطَهارَةِ مَنْبِتِها) .

* * *

وَإِنَّ « أَعْوَجَ » أَبا الْأَفْراسِ الْكَرِيمَةِ ، لَيَفْخَرُ بِأَمْثالِ هٰذِهِ الْفَرَسِ النَّجِيبَةِ ، كَما يَفْخَرُ أَبُونا : « آدَمُ » بِالنُّجَباءِ مِنْ أَبْنائِهِ وَ بَناتِهِ .

وَقَدْ نَشَأَتْ « أُمُّ سَوادَةَ » بَطَلَةُ قِصَّتِنا — وَاسْمُها : « قَسامَةُ » — فِى

بَعضِ بِلادِ الرِّيفِ ، كَما تَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ خَواطِرُها المُعْجِبَةُ .

حَدَّثَها صَدِيقُها « أَبُو زِيادٍ » بِالقِسْمِ الأَوَّلِ مِنْها ، وعُنْوانُهُ : « مَسْلاةٌ (كُومِدْيا) فِي الإِصْطَبْلِ » ، كَما حَدَّثَها بِالْكَثِيرِ مِنْ طَرائِفِ القِسْمِ الثّانِي ، وعُنْوانُهُ : « عالَمُ الإِصْطَبْلِ » .

ثُمَّ أَبْدَعَ زَمِيلُها : « دَهْمانُ » فِيما رَواهُ لَها مِنْ أَخْبارِ صاحِبِهِ : « أَبِي تَوْلَبَ » الَّتِي خَتَمَتْ بِها « قَسامَةُ » هٰذِهِ الفُصُولَ .

وَلَسْتُ أُذِيعُ (أُظْهِرُ) سِرًّا إِذا قُلْتُ لَكَ : إِنَّ قَسامَة — وَكُنْيَتُها « أُمّ سَوادَةَ » كَما عَرَفْتَ — قَدْ أَوْصَتْنِي بِإِهْداءِ هٰذِهِ الخَواطِرِ إِلَيْكَ ، لِما رَأَتْهُ فِيكَ مِنْ حُبِّ القِراءَةِ ، والمُداوَمَةِ عَلَى الاطِّلاعِ ، وَالمُثابَرَةِ عَلَى التَّحْصِيلِ . فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ إِشارَتِها ، وَإِنْجازِ وَصِيَّتِها .

وَلا عَجَبَ أَنْ تَعْهَدَ إِلَيَّ « قَسامَةُ » بِذٰلِكَ ، بَعْدَ ما عَرَفَتْهُ — أَيُّها الصَّدِيقُ العَزِيزُ — مِنْ مَزاياكَ النّادِرَةِ ، وَخِلالِكَ النَّبِيلَةِ الَّتِي حَبَّبَتْكَ إِلَى نَفْسِها .

فَأَنْتَ — فِيما تَعْلَمُ « قَسامَةُ » ، وَفِيما أَعْلَمُ أَنا — جَدِيرٌ بِكُلِّ خَيْرٍ .

وَقَدْ مَيَّزَكَ اللهُ — بَيْنَ أَتْرابِكَ وَلِداتِكَ (بَيْنَ أَقْرانِكَ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ عُمْرِكَ) — بِمِثْلِ ما مَيَّزَ بِهِ « قَسامَةَ » ، بَيْنَ أَتْرابِها وَلِداتِها ، مِنْ كَرِيمِ الخِصالِ ،

وَنَبِيلِ المَزايا ، وَصالِحِ الأَعْمالِ .

° ° °

وَلا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّكَ شاكِرٌ لِهٰذِهِ الفَرَسِ الفَتِيَّةِ (الشّابَّةِ القَوِيَّةِ) هَدِيَّتَها النَّفِيسَةَ ، قادِرٌ (مُقَدِّرٌ) لَها ثِقَتَها فِيكَ ، وَإِعْجابَها بِكَ ، مُنْتَفِعٌ بِما قَدَّمَتْهُ إِلَيْكَ مُبْدِعَةُ هٰذِهِ الخَواطِرِ مِنْ سَدِيدِ الرَّأْيِ ، وَبارِعِ المُلاحَظَةِ ، وَصادِقِ التَّوْجِيهِ ، وَعَمِيقِ التَّفْكِيرِ .

° ° °

وَسَتَكُونُ فِي قابِلِ أَيّامِكَ — إِنْ شاءَ اللهُ — عَظِيمًا بَيْنَ الرِّجالِ ، ما دُمْتَ فِي حاضِرِكَ عَظِيمًا بَيْنَ الأَطْفالِ [1] .

كامل كيلاني

(١) نثبت هذه المقدمة كما أثبتناها في الطبعات السابقة .

١ — مَسْلاةٌ (كوميديا) فى الإصطبل

شخوص المسلاة (أشخاص الكوميديا)

الخَنْساء : بقرة جميلة ، سمراء الشَّعر .

الجُوْذَرَة : عِجْلة ظريفة ، وهى بنت الخَنْساء .

أم الأشعث : عنزٌ مُرْتفِعةُ القرْنَيْنِ ، طويلة اللِّحْيَةِ ، موْفورة النشاط ، دائمة الجرى ، لا تكادُ تستقِرُّ فى مكانها لحْظةً .

أبو بُجَيْر : ابنُ العنزِ ، وهو جَدْىٌ فى مقتبل شبابه .

أمُّ فَرْوَةَ : نعجةٌ بيضاء .

الطَّلىُ : حَمَل (خروفٌ فتِىٌّ) مُجعَّدُ الشَّعر ، وهو ابن تلك النعجة .

أبو دُلَف : خِنْزير ، مُكْفَتُّ الأنفِ (أنْفُهُ مُتضامٌّ : مُتكبِّبٌ) .

(هؤلاء جميعاً فى آخر الإصطبل)

أبو زياد : حمار .

لاحِقٌ : جوادٌ ، جميلٌ ، أسْمَرُ . (هذان فى جانب من الإصطبل)

ابنُ وازِعٍ : كلبُ الحراسةِ . (فى خارج الإصطبل أمام الباب)

أَبُو زِيادٍ : (الحمار يخاطب العنز) : « حَذارِ — يا أُمَّ الأَشْعَثِ — وإيَّاكِ أن تَتَمادَىْ فى هٰذا العَبَثِ . لَقَدْ أزعجتِنا بِجَلاجِلِكِ هٰذه . . . وكأَنَّما نَسِيتِ ما كابَدْتُه

مِنَ العَناءِ طُولَ الْيَومِ . ألا فلتعلَمِي — إنْ لمْ تَكُونِي تَعْلَمِينَ — أَنِّي قَضَيْتُ نَهارِى كُلَّهُ عَدْوًا (جَرْيًا) بلا راحةٍ ، وقد بَرَّحَ بِىَ التعبُ (آذانِى أَذًى شَدِيدًا) ، فأصبحتُ فى أشدِّ الحاجةِ إلى النَّومِ ، فالْبَثِى (امْكُثِى) فى مكانِكِ هادئَةً ساكِنة ، واحْذَرِى أن تُكَدِّرِى عَلَىَّ صَفْوَ مَنامِى بَعْدُ ! »

أُمُّ الْأَشْعَثِ : (العنز تخاطب الحمار) : « عُذْرًا — يا « أَبا زِيادٍ » — واصْفَحْ عَنْ زَلَّتِى ، وتَجاوزْ عَنْ خَطِيئَتِى ، فإنِّى عَلَيْها جِدُّ نادِمَةٍ ، وما كُنْتُ لِأَتعمَّدَ إيقاظَكَ من سُباتِكَ (تَنْبِيهَكَ مِنْ نَوْمِكَ) ، ولٰكِنَّها حَشَرَةٌ خَبِيثَةٌ — لَسْتُ أَدْرِى ما هِيَ — قد لَدَغَتْنِى فى رَقَبَتِى ، فلما هَمَمْتُ بِدَلْكِها ، ورفَعْتُ رِجْلِى — فى خِفَّةٍ وحَذَرٍ — لِأُخَفِّفَ أَثَرَ اللَّدْغِ — دَقَّ جَرَسِي — عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّى — فأَيقظَكَ من نومِك . »

الْخَنْساءُ : (البقرة تخاطب العنز) : (ترفع عينيها الكبيرتين وقد تمثل فيهما الحزن والألم) :

« أىُّ جَلَبَةٍ هٰذه ؟ ألا تَكُفِّينَ — يا أُمَّ الأشْعَثِ — عَنْ هٰذا الْعَبَثِ ؟ لَقَدْ أَزْعَجْتِنِي بِجَلاجِلِكِ ، وأَيْقَظْتِنِي من سُباتى (نَوْمِى) بتلْكِ الثَّرْثَرَةِ الفارِغَةِ والْكَلامِ الْكَثِيرِ ! هٰذا اعتداءٌ سَمِيجٌ (قَبِيحٌ) لا أُطِيقُهُ . ألا تَعْلَمِينَ أَنَّكِ أَضَعْتِ عَلَىَّ الْحُلْمَ اللَّذِيذَ ، الَّذِى كُنْتُ أَنْعَمُ به فى أثناءِ نَوْمِي ؟ لَقَدْ تَمثَّلَ لِى — فى عالَمِ الأَحْلام — يَوْمٌ سَعِيدٌ من أيَّامِ الْخَرِيف ، لَنْ أَنْسى طِيبَهُ ما حَيِيتُ فقد غاب عَنَّا « ابنُ وازِعٍ » (يَعْنِي الكَلْبَ) — فى ذٰلكِ اليومِ — فخرجتُ مَعَ بِنْتِى « الجُوْذَرَةِ » تلكِ المِجْلَةِ الظَّرِيفَةِ ، حَيْثُ قَضَيْنا اليومَ كُلَّهُ ناعِمَيْنِ بأَكْلِ البِرْسِيمِ الهَنِيءِ السائِغِ ، فَلَمَّا جاءَ الْمَساءُ

ظَلِلْنا نَمْرَحُ (اشْتَدَّ فَرَحُنا ونَشاطُنا حتى جاوَزا القَدْرَ) فى قِمَّةِ الجبل (فى أعلاهُ) ، بين أشجار الصَّنَوْبَرِ والشُّوحِ الكبيرة . فما كانَ أرْوَعَهُ منظرًا ، وما كانَ أطْيَبَ تِلْكِ الأزاهيرَ الشَّذِيَّةَ المُعَطَّرَةَ . . . ثُمَّ سَمِعْنا صَوْتَ سيِّدِنا الإنسانِ يُنادِينا وَهُوَ فى سَفْحِ ذٰلِكِ الجبلِ الشّامِخِ (الشَّديدِ الارتفاعِ) . »

أُمُّ فَرْوَةَ : (النعجة تخاطب العنز) : « نعم — يا أمَّ الأشْعَثِ — لقد أسأتِ إلَيْنا بما فعلْتِ ، وأيْقَظْنا جَرَسُكِ مِنْ نَوْمِنا جميعًا ، ولن نَسْتَطِيعَ النَّوْمَ بعْدَ الآنَ . ولَيْسَ لنا مِنْ حِيلَةٍ نَتَحَوَّلُها لِنَقْضِيَ الوَقْتَ الباقِيَ إلّا أن نَجْتَرَّ شيْئًا مما اخْتَزَنّا . . . ما رَأْيُ الخَنْساءِ فى ذٰلِكِ ؟ لقد خَزَنْتُ مقدارًا كبيرًا من الحشائش فى جَوْفى ! »

أبو زيادٍ : (الحمار مخاطبًا النعجة) : « وماذا أصنعُ الآنَ ؟ وكيف أُضيعُ الوقتَ ؟ أنسيتِ — يا أُمَّ فَرْوَةَ — أنْ لَيْسَ لِي أرْبَعُ كُروشٍ مِثْلُ ما لَكِ ؟ فَمَنْ لِي بأنْ أجْتَرَّ كما تجْتَرين ؟ ألا تَنْظُرِين إلى أرجلى ؟ إنَّكِ لو أنْعَمْتِ النَّظَرَ ، لرأيتِ أنّنى منْ غيرِ فَصِيلتِكِ وطائفتِكِ ، كما أنَّ صَديقى « لاحِقًا » لا يَجْتَرُّ كَذٰلِكِ ، فَقَدْ وقانا الله — سُبْحانَهُ — تِلْكِ العادةَ

السَّيِّئَةَ ؛ أعْنِي أنَّنا لم نَعْتَدْ أنْ نأْكُلَ مَرَّتَيْنِ — كما تَفْعَلِينَ — لأنَّكِ تأْكُلِينَ ثم تَخْزُنين جُزْءًا مما أكَلْتِهِ ، فى كِرْشِكِ (مَعِدَتِكِ ، والكَرِشُ — لِذِى الخُفِّ والظِّلْفِ وكُلِّ مُجْتَرٍّ — بِمَنْزِلَةِ المَعِدَةِ للإنْسانِ) لِتَجْتَرِّيهِ وَقْتَما تَشائِينَ . »

أبو دُلَف : (الخنزير) : « وماذا أنا صانِعٌ أيضًا ؟ وَكَيْفَ أُضِيعُ الوَقْتَ الباقِيَ ، أيُّها الإخْوانُ ؟ أنَسِيتِ — يا أُمَّ فَرْوَةَ (يَعْنى النَّعْجَةَ) — أنْ جَدِّى وأبى لم يَجْتَرّا قَطُّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ لَنا أرْجُلًا مَشْقُوقَةً كأرْجُلِكِ ؟ ولهٰذا وَرِثْتُ عَنْهُما أنْ أزْهَدَ فى تِلْكِ العادةِ المَرْذُولَةِ ، فلم أُمَرِّنْ نَفْسِيَ عَلَيْها قَطُّ .

(تسمع فى هذه اللحظة ضجة فى وسط الإصطبل ، لأن الطلى — ذلك الحمل المجعد الشعر — وأبا بجير — ذلك الجدى الشاب — جرهما المزاح إلى النطاح ، فأرادا أن يجربا قرونهما الصغيرة ، فاشتبكت والتصق رأساهما ، وعجزا عن تخليص قرونهما المشتبكة)

الطَّلِيُّ : (الحمل) (بصوت أبح) : « لا . . لا . . . ! »

أبو بُجَيْرٍ : (الجدى ، مندفعًا إلى الأمام يخاطب الحمل) : « لا مناص (لا خَلاصَ ولا مَفَرَّ) لكَ من الاعتراف بِبأسى وقوَّتى ، ولا بُدَّ أنْ تُقِرَّ لى بالغَلَبَةِ عليكَ ! »

الطَّلِيُّ : (الحمل مخاطبًا الجدى) : « أمّا أنَّكَ أقْوَى مِنِّى ، فلا ، وَكَذَبْتَ فى

زَعْمكَ ! وإنَّما أنتَ مُدَّعٍ خَبيثٌ . »

أَبُو بُجَيْرٍ : (الجدى) : (يضرب عين الطلى برأسه فيعلو صراخ الطلى المسكين) :

« طَقْ ! طَقْ ! »

الطَّلِيُّ : (الحمل) : (يجرى إلى أمه باكياً) : « آىْ ! آىْ ! أُمِّى ! أُمِّى ! لقد فَقَأَ الخبيثُ عينى ! آه ! آه ! لقد عوَّرها (جَعَلَها عَوْراء) . »

أُمُّ الأَشْعَث : (العنز) : (تمر لسانها – فى رفق وهوادة – على فم الطلى) : « لا عَلَيْكَ يا وَلَدِى . لا تَألَمْ . فما بكَ من سُوءٍ ، أنا على ثِقَةٍ من سَلامتك ، فلا يَحزُنْكَ ما حدثَ ؛ فإن « أبا بُجَيْرٍ » قَصَدَ إلى مُداعبَتِكَ وملاطفتك ، ولم يَرْمِ إلَى إيذائك . انظرْ إليه ، ألا تراه محزوناً واجماً (ساكتاً عابسَ الوَجْهِ مُغْتَمًّا) خشْيَةَ أن تكون قد أُصِبْتَ بسوء ؟ »

أبو بُجَيْرٍ : (الجدى) : (يقترب) : « صَدَقْتِ – يا أُمَّ الأَشْعَثِ – وبالحقِّ نطقتِ ، فما قَصَدْتُ إلى شَىْءٍ غيْرَ الدُّعابَةِ والمُزَاحِ ، فهلْ أَصَبْتُكَ بأذًى يا رَفيقَ الطَّلِيُّ ؟ اصْفَحْ عَنِّى يا عَزيزى . »

الطَّلِيُّ : (الحمل) : (لا يكف عن بكائه) : « هِئْ ! هِئْ ! هِئْ ! ما زالَتْ عَيْنِى تَوْجعُنِى . »

أبو بجَيْرٍ : (الجدى) : « إنِّى مُخَفِّفٌ أَلَمَك ، فادْنُ (اقْتَرِبْ) مِنِّى لأَلْحَسها (لأَلْعقَها) لَكَ . . . ألا تَشْعُرُ براحَةٍ الآنَ ؟ ألا تَزالُ حاقِدًا عَلَىَّ يا رَفِيق ؟ »

الطَّلِيُّ : (الحمل) : (يسكن ويكف من البكاء) : « لا عَلَيْكَ فقــد نَسِيتُ ما فات – يا أبا بجَيْرٍ – ولٰكِنْ لا تَعُدْ إلى مِثْلِ ذٰلِكَ مرَّةً أخرى . »

(تقف الدواب كلها وعيونها مفتوحة محملقة)

أَبُو زِيادٍ : (الحمار) : « ماذا نصْنَعُ يا أَصْحَابى ؟ لقَدْ تأَخَّر بِنا الوَقْتُ ، ألا ترَوْن ذٰلِكُمُ الضَّوْء الذى يُشِعُّ (يَنْشُرُ شُعاعَهُ) من النافذةِ ، إنه ضَوْءُ القَمَرِ السَّاطعِ . وأنا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنا لَنْ نَنامَ طُولَ هٰذه اللَّيْلَةِ ، ومَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَلَنْ أُفْلِتَ مِنَ الصَّحْوِ مُبَكِّرًا فى الصَّباحِ التَّالِى ، لأَحمِلَ اللَّبَنَ إلى المدينَةِ . »

الخَنْساء : (البقرة مخاطبة الحمار) : « إنَّكَ سَتَعْمَلُ كَما يَعْمَلُ سَيِّدُكَ – يا « أبا زِيادٍ » – أَلَمْ تَقُلْ لِى ذٰلكَ اليومَ إنَّهُ قَضَى وَقْتَهُ نائماً طولَ الطَّرِيقِ ؟ »

أَبو زِيادٍ : (الحمار مخاطباً البقرة) : « صَدَقْتِ – ياسَيِّدَتِى الخَنْساء – ولٰكِنْ

لا تنسَىْ أنّنِي مسئولٌ عنْ سلامتِهِ ، وأنّنِي جديرٌ بالتّنَبُّهِ واليقظةِ فِى أثناءِ نوْمِهِ . »

أمُّ الأشعثِ : (العنز ، تلتفت إلى النعجة) : « إيهِ ! ماذا بكِ يا أمَّ فرْوَةَ ؟ ما بالكِ ترْجُفِين ؟ أمريضةٌ أنتِ ؟ »

أمُّ فرْوَةَ : (النعجة مخاطبة العنز) : « كلّا يا صاحِبَتِى ، ما أنا بمريضةٍ ، ولٰكِنَّ البرْدَ يكادُ يُهلِكُنِى ، فاقترِبِى منِّى ، واتّكِئِى علَىَّ لأستدفئَ بجسدِكِ ، وأدفعَ بكِ غائلةَ البرْدِ (شدّته المُهلِكَة) . »

أمُّ الأشعثِ : (العنز) : « بكلِّ سرُورٍ يا عزيزتى ! »

الخنساءُ : (البقرة تخاطب النعجة) : « عجيبٌ أن تشعُرِى بالبرْدِ فى هٰذهِ اللّيلةِ ، علَى حينَ لم تشعُرِى بذٰلك أمسِ وما سبقه من الأيام ؟ وعجيبٌ ما حدثَ لكِ اليوْمَ يا صاحِبَتِى . لقدْ أنكرْتُكِ (جهلتُكِ) إذْ رأيْتُكِ تدخُلِينَ الإصطبلَ — هٰذا المساءَ — وقد تبدّلت هيئتُكِ ، حتى اختلطَ علَىَّ أمرُكِ ! ألا ترَوْنَ رأيِى أيّتُها الصاحباتُ ؟ »

أبو زيادٍ : (الحمار يخاطب البقرة) : « بلَى — أيّتُها العزيزة — إنّا علَى رأيِكِ مُجمِعاتٌ فقد أنكرْتُها كذٰلكِ حينَ رأيْتُها . وسألْتُ نفسِى مدْهُوشًا : ترَى

منْ تكُونُ هٰذهِ الرّفيقةُ الجديدةُ ؟ فقد بدا جِسمُها صغيرًا مهزُولًا . . . ولٰكِنَّ صديقِى « لاحقًا » (يعنِى : الجوادَ) ، أخبرَنِى أن سيّدَها الإنسانَ قد أمرَ بقصِّ صوفِها الجميلِ فى هٰذا النّهارِ . »

أم فروةَ : (النعجة) : (بصوت محزون) : « صدَقْتُنَّ يا رفيقاتِى العزيزاتِ . لقدْ أصبحْتُ عاريةً ، نعمْ جِدَّ عاريةٍ من ثوبِى الغليظِ . فقد نزعَ أحدُ الرّجالِ عنْ جسَدِى تلْكُنَّ الخُصَلَ الجميلةَ ، وهى جماعاتُ الشّعَرِ التى كُنْتُنَّ تُعجَبْنَ بها ، ولمْ يدعْ لِى منْها إلّا خُصْلةً صغيرةً مِنَ الشّعَرِ فى طرَفِ الذّيْلِ . وقد استوْلَى علَىَّ الحُزنُ الشّديدُ ، مُنذُ حُرِمْتُ هٰذا الكِساءَ البديعَ . فلقدْ كانَ لى نِعمَ الثّوْبُ المُدْفِئُ : يقِينِى غائلةَ البرْدِ . فلمّا حُرِمته ، سرَتِ الرِّعدَةُ (الرّعشةُ والاضطرابُ) فى جسَدِى حتى كِدْتُ أعجزُ عنِ الحُضُورِ إلى هنا . »

(الجميع : صوتاً واحداً) :

« لكِ اللهُ يا أمَّ فروةَ . . . مِسكينةٌ أنتِ أيّتُها العزيزةُ »

أبو دُلفَ : (الخنزير) : « ليس عجباً أنْ مثّلُوا بكِ — يا أمَّ فروةَ (صنعُوا بكِ من السُّوءِ ما يلفِتُ النّظرَ) — فلقدْ طالَما حدّثْتُكِ بغدْرِ الإنسانِ

وأنانِيَّتِهِ (كِبْرِيائِهِ وشِدَّةِ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ) ، فهو يأبى إلّا أنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى كُلِّ ما نَمْلِكُ ، ويَسْتأْثِرَ (يَنفرِد) بطيِّباتِنا ، ولا يَتْرُكَ شَيْئًا إلّا انتفعَ به . . . آهٍ ! لَهُ اللهُ مِنْ شَرِهٍ (شَدِيدِ الحِرْصِ) طَمّاعٍ ! أُؤَكِّدُ لَكِ يا أُمَّ الأشْعَثِ : أنَّ الإنْسانَ — إذا فَقَدَنا وحُرِمَ خِدْمَتَنا إيّاهُ — أصْبَحَ مَحْزُونًا كاسِفَ البالِ (سَيِّئَ الحالِ) . وانْقَلَبَ زَهْوُهُ وخُيَلاؤُهُ (إعجابُهُ بِنَفْسِهِ وَكِبْرِياؤُهُ) ذِلَّةً وانْكِسارًا . ولَوْلا صُوفُكِ الجميلُ ، لَعاشَ الإنسانُ عارِيًا كَما تَعَرَّى الضِّفْدِعُ و . . . »

لاحِقٌ : (الجواد) : (يقاطعه) : « صَهٍ — يا أبا دُلَفَ — وحَذارِ أن تَذُمَّ الإنْسانَ أمامي ، فهو خَيِّرٌ سَمْحٌ كريمٌ وقد غَمَرَنا بِعَطْفِهِ وحُبِّهِ . أفاهِمٌ أنتَ ؟ إنَّهُ سَيِّدُنا وأنا أمْحَضُهُ الحُبَّ (أُخْلِصُ لَهُ الوُدَّ) ، ولا آذَنُ لكَ في اغتيابه وتَنَقُّصِهِ (التَّحَدُّثِ في غَيْبَتِهِ بما يَعِيبُهُ) ، فحَذارِ أن تَمَسَّ سُمْعَتَهُ بِسُوءٍ ! »

أبو دُلَفَ : (الخنزير) : « إذا صَحَّ ما تَقُولُ ؛ واعْتَرَفْنا للإنسانِ بِسِيادته عَلَيْنا ، فقَدْ سَجَّلْنا عَلَى أنْفُسِنا أنَّنا أذِلّاءُ جُبَناءُ . فَمَنْ لَنا بالاتِّحادِ والتَّضافُرِ ؟ آهٍ ! لو تحقَّقَ هٰذا الحُلْمُ الجميلُ ، وأصْبَحْنا جميعًا يدًا واحِدَةً ! إذَنْ لَقَهَرْناهُ ،

وغَلَبْناهُ عَلَى أمْرِهِ . فإنَّ لِي مَخالِبَ قَوِيَّةً فاتِكَةً ، تُشْبِهُ الكَلالِيبَ (وهِيَ : حَدائِدُ مُلْتَوِيَةُ الرَّأْسِ) ، ولِأُمِّ الأشْعَثِ قَرْنَيْنِ كَبِيرَيْنِ لا قِبَلَ (لا قُدْرَةَ) لَهُ بِمُقاوَمَتِهِما . فلو صَحَّتْ عَزِيمَتُنا وتَرَكْنا الجُبْنَ والخَوَرَ (الضَّعْف) جانِبًا ، لانْتَصَرْنا عَلَيْهِ ، وأصْبَحْنا سادَةً في هٰذا المَكانِ . وأيْنَ حياةُ

السّادَةِ مِنْ حَياةِ العَبِيدِ الأرِقّاءِ ؟ وَمَنْ لَنا بالتَّضافُرِ ، لِنَقْهَرَ (نَغْلِبَ)

هٰذا السيِّدَ، ونُصْبِحَ أُولِي الأمْرِ في هٰذا المكانِ: نَسْتَيْقِظُ مَتَى شِئْنا، ونُقابِلُ مَنْ شِئْنا مِنَ الأصْدِقاءِ والخُلَصاءِ، ونَفْرِضُ عَلَى الإنسانِ طاعتَنا وسيادَتَنا ! »

لَاحِقٌ : (الجواد) : (غاضباً يضرب الأرض بسنبكه وهو الحديدة فى الحافر): « يا لكَ مِنْ جاحِدٍ، مُنْكِرٍ للجَميل، يا أبا دُلَفَ ! »

أَبُو دُلَفَ : (الخنزير مخاطباً الجواد) : « ما أعجَبَ أمْرَكَ يا لاحِقُ ! أنَسِيتَ أنَ الإنسانَ يَسْلُبُنا نفائسَنا ويَغْتَصِبُ ما هُوَ حَقٌّ لنا . ولا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ نَمْلِكُه إلَّا اسْتأثَرَ (اختصَّ نَفْسَهُ) بِهِ ؟ ألا تَعلَمُون — أيُّها الأصدقاء — أنَّ الإنسانَ لا يفعل هٰذا إلَّا بَغْياً (ظُلْماً) منه وعُدْواناً ؟ ذٰلِكُمْ بأنَّهُ مِثالُ الشَّرَهِ والأنانِيَّةِ، ولَيْسَ فِي دَوابِّ الأرضِ كلِّها ما يُدانِيهِ فِي شَرَهِهِ وأنانِيَّتِهِ، فهو دائِبٌ على أَكْلِ الفَطائِرِ المُسَكَّرَةِ، والحَلْوَى، وما إلى ذٰلِكُمْ . فَهَلْ خَطَرَ ببالِهِ أنْ يُشْرِكَنِي مَعَهُ فِي تِلْكُمُ الفطائِرِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ ؟ كَلَّا يا أعِزَّائي، إنَّما يَتْرُكُ لي من فَضَلاته ما يتَخَيَّرُ لي ؟ واسْمَحُوا لي أن أسأَلَكُمْ : لِماذا لا يأْكُلُ الحشائِشَ كما نأْكُلُها عَلَى شواطِىءِ الغُدْرانِ والمناقع (وهي جَمْعُ مُسْتَنْقَع : مكانٌ يَلْتَقِي فيه الماءُ ويكثُرُ) ؟ كلَّا، إنَّهُ لا يَفْعَلُ ذٰلِكُمْ، بَلْ يَسْتَأْثِرُ (يَخُصُّ نَفْسَهُ) بلذائِذِ الأطْعِمَةِ، وطَيِّباتِ

الحلوَى ! آهٍ لَهُ، وَواهٍ مِنْهُ، أيها الخُلَصاء الأعِزَّاء ! أتَحْسَبُونَهُ يُؤْوِينا في دارِهِ، إشْفاقاً عَلَيْنا وَبِرًّا بِنا ؟ شَدَّ ما أحسنْتُمْ به الظَّنَّ الكَذُوبَ، وشَدَّ ما خدعَتْكُمْ أوهامُكم، وكَذَبَتْكُمْ أحْلامُكم ! إني جِدُّ خَبِيرٍ بَصِيرٍ (عارِفٌ غايَةَ أمْرِي حَقَّ المَعْرِفَةِ) . ولَسْتُ أجْهَلُ كَيْفَ تَكُونُ خاتِمةُ حَياتِي التاعِسَةِ على يَدِ هٰذا الغادِرِ المُنْكِرِ الجميلَ . فإنَّهُ مَتَى أَقْبَلَ فَصْلُ الشِّتاءِ، وبَرَدَ الجوُّ ؛ ورآنِي سَمِيناً مُمْتَلِئَ الجسمِ، مُتَكَتِّرَ اللَّحْمِ، (لَحْمِي مُتَجَمِّعٌ مُتَصَلِّبٌ) لم يَتَرَدَّدْ في ذَبْحِي . . . »

لاحِق : (الجواد) : « طالَما حدَّثَتْنِي أُمُّكَ — وهِيَ حازِمَةٌ ذَكِيَّةٌ رَشِيدَةٌ — أنَّنا لم نُخْلَقْ إلا لِنَخْدُمَ سَيِّدَنا الإنسانَ . فَمِنَّا مَنْ يَخْدُمه فِي حياتِهِ وَمِنَّا من يَخْدُمُهُ بَعْدَ مَماتِه وَمِنَّا مَنْ يَخْدُمه فِي حَياتِهِ وَمَوْتِهِ عَلَى السَّواءِ وَحَسْبُنا هٰذا شَرَفاً ومَجْداً فليسَ أجملَ من أنْ نُسْلَكَ في عِدادِ النافعِين ! وما أعْذَبَ المَوْتَ وأهنأَهُ إذا أعقبَهُ النَّفْعُ والخيْرُ للنَّاسِ ! »

أبودُلَفَ (الخنزير) : « هُومْ ! هُومْ ! أتقُول : « ما أحلَى المَوْتَ » ؟ . يالَكَ مِنْ أبْلَهَ غَبِيٍّ ! فمَتَى يُحَقِّقُ اللهُ رَجائِي فَأُلْفِيَكَ (أُلْقاكَ أمامِي) مَذْبُوحاً ؟ على أنِّي أدَعُ لكَ رأيَكَ، وأُكاشِفُكَ : إنِّي لا أرَى ما تَراهُ ! »

لاحِقٌ: (الجواد) (يخاطب الخنزير) : « شَدَّ ما أضَلَّكَ الغَرَضُ ، وأعماكَ الهَوَى يا أبا دُلَف — فأنا أقضى حياتِي كُلَّها جادًّا عامِلًا ، دائبًا على احْتِمالِ المَشَقَّةِ والعناء بِصَبْرٍ عَجيبٍ ، عَلَى حينَ تقضى حياتَكَ كُلَّها مُتَبَطِّلًا (مُتَعَطِّلًا) كَسْلانَ: تأكُلُ وتَشْرَبُ وتنام ، ثُمَّ لا تَعمَلُ شَيْئًا بَعْدَ ذلك . أفَلَيْسَ مِنَ العَدْلِ أن تُذْبَحَ ، ما دُمْتَ لم تُسْدِ إلى أحدٍ (لم تُقَدِّمْ لَهُ) فائدةً أو نَفْعًا طُولَ حَياتِكَ ؟ وأيُّ فائدةٍ مِنَ الحَياةِ لِكائِنٍ كانَ إذا لم يَنفَعْ غَيْرَهُ ؟ »

أبو دُلَفَ: (الخنزير) (يخاطب الجواد) : « إنِّي لأُوثِرُ (أختارُ) أنْ أعمَلَ مِثْلَ عَمَلِكَ — يا سَيِّدِي « لاحِقُ » — حَتَّى لا تُخْتَمَ حَياتِي بالذَّبْحِ ، ولَـكِنَّنِي — كما تَرَى — سَمِينُ الجِسْمِ ، كَثِيرُ الشَّحْمِ ، بَطِيءُ الحَرَكَةِ ، كَثِيرُ النَّوْمِ ، ولذلِكَ لا أنْشَطُ إلى العَمَلِ كَما تنشَطُ أنْتَ . عَلَى أنَّ هذا لَيْسَ مِنْ خَطَئِي ، وَلَيْسَ لِي حِيلَةٌ في دَفْعِهِ ، وَقَدْ كانَ أبِي يَقُولُ : إنَّنا لا نَنْفَعُ في أثْناء حَياتِنا ، حَتَّى إذا هَلَكْنا أصْبَحْنا نافِعِينَ ! »

أبو زيادٍ: (الحمار) : (يضحك وهو يرفع شفته الضخمة) : « إنَّكَ لا تَنْفَعُ أحَدًا ، في حَياتِكَ ومَماتِكَ أبدًا ، فلا تفخَرْ بِشَيْءٍ ، فإنَّكَ أقذَرُ دوابِّ الأرضِ

وأشَدُّها وَقاحَةً ، وقَدْ كُنْتَ — وَلا تَزالُ — مَضْرِبَ المَثَلِ في الشَّرَهِ ، والسَّماجَةِ ، والرِّجْسِ (القَذَر) ! »

أبو دُلَف: (الخنزير) : « لقَدْ دَخَلْتُ المَطْبَخَ — ذاتَ يوم — في غَيْبَةِ « ابن وازِع » — (الكلب) — فرأيتُ ما هالَنِي (فَزَّعَني) . . . »

أمُّ الأشْعَثِ: (العنز) : « أدَخَلْتَ المَطْبَخَ ؟ . . . أوه ! ولماذا دخلت المطبخ ؟ آه ! لو رآكَ سَيِّدُكَ هُناكَ . . . إذن لأمَرَ بذبحِكَ ، جزاءَ هُجُومِكَ وتَعَدِّيكَ ! »

أبو دلف: (الخنزير) : (جاداً في لهجته) : « لا يَسْخَرْ أحَدٌ مِمَّا أقول . لقد دَخَلْتُ المَطْبَخَ ، وأجَلْتُ (أدَرْتُ) بَصَرِي فِيهِ ، فَرَأيْتُ — ويالَهَوْلِ ما رَأيْتُ — أكْياسًا صَغيرَةً مَمْلُوءةً لَحْمًا ، وإلى جانبها أرْجُلُ صديقتِنا العزيزةِ « الجَوْزاء » : النَّعْجَةِ الظَّرِيفَةِ التي في وسَطِها بَياضٌ . وَقَدْ كُنَّا نأْنَسُ بها مُنْذُ أيَّام . فَفَزِعْتُ وهَرَبْتُ مُسرِعًا إلى فِناء الدَّار ، (وهي السَّاحَةُ الَّتِي أمامَها) . »

الخنساء: (البقرة) : « ما أفظعَ ما تقُصُّهُ عَلَيْنا يا أبا دُلَفَ ! »

أبو دُلَفَ: (الخنزير) : « إني أحدِّثُكُنَّ بما رأتْهُ عَيْنايَ ، وأنا واثِقٌ مِمَّا رأيتُ ، كما أثِقُ أنَّ لِي أُذُنَيْنِ . فَلْتَطْمَئِنَّ — يا رفيقاتِي العَزيزاتِ —

أنَّ مصارِعَنا وشيكةٌ (أنَّ أيامَ ذَبْحِنا قريبة) لا مفرَّ منها ، فلا يُدْهِشَنَّكِ
ذٰلكِ يا « جُؤْذَرَةُ » ! . »

الجؤذرة : (العجلة) : « ما أَحْسَبُهُمْ يَسْتَطِيعونَ ذَبْحِي ، فإنِّي على ثِقَةٍ مِنْ
قدرَةِ أُمي على حِمايَتِي ، لأنَّها سَتَنْطَحُهم بِقرْنَيها الكبيرَيْنِ ، أليْسَ
كذٰلِكِ يا أُمّاهُ ؟ عَلَى أنني أُعاهِدُكُنَّ أنَّني لَنْ أرْكَنَ إلى أحدٍ مِنَ النَّاسِ
بَعْدَ هٰذا اليَوْمِ ، ولَنْ آكُلَ شيئًا مِنَ البَلَحِ الَّذِي تُهْدِيهِ إليَّ « سُعادُ »
— بِنْتُ سَيِّدِنا الإنسانِ — ما دامَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ ما وَصَفْتَ مِنَ اللُّؤْمِ
والغَدْرِ يا « أبا دُلَفَ » ! . »

لاحِقٌ : (الجواد) : (بوقار) : « أَصْغُوا إليَّ — يا رفاقي — فإنِّي أكْبَرُكُمْ
سِنًّا ، وأعْرَفُكُم بالنَّاسِ ، وأَخْبَرُكُمْ بالحياةِ ؛ لأنَّني قَدْ عِشْتُ أكْثَرَ
مِمَّا عِشْتُمْ ، وَبَلَوْتُ (جَرَّبْتُ واخْتَبَرْتُ) منهمُ الطيِّبَ والخبيثَ .
ويَجِبُ أنْ تَعْلَمُوا أنَّ الناسَ يَخْتَلِفُونَ كَرَمًا ولُؤْمًا ، كما تَخْتَلِفُ الدَّوابُّ
سَواءً بِسَواءٍ . فمِنَ الناسِ من تَدْفَعُهُمُ القَسْوَةُ إلى إجهادِنا (إتعابِنا)
— بلا رَحْمَةٍ — فلا يَتَأَثَّمُونَ (لا يكفُّون عن الإثم) ، ولا يَخْشَوْنَ من
إعناتِنا وإرهاقِنا وضَرْبِنا ، ولا يُبالُونَ ما كابَدْناهُ مِنَ التَّعَبِ والمشقَّةِ

والضَّنَى . ومنهم من يتلطَّفون بنا ، ويداعبوننا مُتَوَدِّدِين .
وسَيِّدُنا من هٰذا الفريقِ الطّاهرِ القلْبِ ، الكريمِ

النَّفس . فهو دائبٌ عَلَى مُداعَبَتِنا والتَّودُّدِ إليْنا ،
ولا يكادُ يَخْلُو جَيْبُهُ مِنْ قِطعَةٍ مِنَ الخُبزِ أو
السُّكَّرِ أو الملحِ يقدِّمُها لنا متلطِّفًا ، ليرفِّهَ عنَّا

(يُخَفِّفَ من آلامِنا) . فلا غَرْوَ (لا عَجَبَ) إذا أحببناه حُبًّا جَمًّا (كثيرًا) ، وبذلْنا حياتَنا فِداءً له . أليس هٰذا صحيحاً أيُّها الإخوانُ ؟ »

[الجميع يقرون كلامه ويصيحون معلنين موافقتهم ، فتخور البقرة ، وينهق الحمار ، وتثغو النعجة والعنز والحمل والجدى ، أما الخنزير فلا يقر هذا الرأى فيقبع فى ركن من الاصطبل .]

أبو دُلَف : (الخنزير) : (بعد فترة من الصمت) : « صَدقْتَ يا لاحِقُ ، ولٰكنْ لا تقل : إنك جديرٌ أن تُفْنِيَ عُمْرَكَ فى الْعَمَلِ لأجْله . »

لاحِقٌ : (الجواد) : (هازًّا عرفه الطويل ، وهو شعر رقبته) : « ما مَعْنَى هٰذا ؟ وأىُّ غضاضَةٍ (ذِلَّةٍ) فى أن يَظَلَّ الفَرْدُ مِنَّا عامِلًا كادِحاً (جاهِدًا نَفْسَهُ فِي العَمَلِ) طُولَ حَياتِهِ ؟ ألم نُخلَقْ لِنعملَ ؟ وما مَعْنَى وُجُودِنا فى الحياةِ إذا لم نؤدِّ قِسْطَنَا (نَصِيبَنا) من الواجبِ ؟ ألا فلتعلمْ — يا أبا دُلَف — أنَّ شَيْئاً واحِدًا يُوَفِّرُ لَنا السَّعادَةَ (يُكَثِّرُها لَنا) فى هٰذه الدنيا ، وهو : العملُ . ألا تَرَى النَّمْلَ فى بُيُوتِهِ دائباً عَلَى السَّعْيِ فى جِدٍّ ونَشاطٍ ؟ ألا تَرَى النَّحْلَ يَمْتَصُّ الأزهارَ ، ويتنقلُ من رَوْضَةٍ إلى أُخْرَى ، لِيُعِيدَها شُهْدًا (عَسَلًا) سائغاً للآكلين ؟ ألا تَرَى العَصافِيرَ دائبةً (مُسْتَمِرَّةً) عَلَى بناءِ أوكارِها ؟ ألا تَرَى الأشْجارَ تنمو لِتُظَلِّلَ النـاسَ وتَقِيَهُمْ غائلةَ الحرارةِ ؟ ألا تَرَى

الشَّمْسَ دائبَةً عَلَى الطُّلُوعِ — كلَّ يومٍ — لِتُدْفِئَنا وتُنيرَ لَنا سَبِيلَ الحياة ؟ ألا تَرى النَّاسَ يَكْدَحُون ولا يَفْتُرون (لا يهْدَأُونَ) عن العَمَلِ ؟ »

الخَنْساءُ : (البقرة) : « ما هٰذا الكلامُ يا لاحِقُ ؟ أرأيتَ أحَدًا مِنَ النَّاسِ يجُرُّ المِحْراثَ كما تجرُّهُ أنتَ ؟ »

أبو زيادٍ : (الحمار) : « أوْ كما أجُرُّهُ أنا يا خَنْساءُ ؟ أنَسِيتِ أنَّنى أجُرُّ المَحاريثَ أيضاً ؟ »

الخَنْساءُ : (البقرة) : (ولم تسمع كلام أبى زياد) : « ثُمَّ إنَّهُمْ يَضْرِبونَك — يا لاحِقُ — ويُلْهِبُونَ جِسمَكَ بِسِياطِهِم (جَمْعِ سَوْطٍ ، وهُو ما يُضْرَبُ بِهِ مِنْ جِلْدٍ أوْ غَيْرِهِ) ، فما أقْساهُمْ وأغْلَظَ أكبادَهم ! »

لاحِقٌ : (الجواد) : (من فوره) : « كَلَّا يا خَنساءُ ، لَقَدْ كذَبَتْكِ ظُنُونُكِ ، فإنَّ سَيِّدى لا يُلهِبُ جَسَدِى بِسَوْطِهِ — كَما تَزْعُمِينَ — بَلْ يَكْتَفِى بأنْ يَمَسَّ جِسْمِى بِطَرَفِ سَوْطِهِ — فِى خِفَّةٍ وَرَشاقَةٍ — لِيَحُثَّنى على العَدْوِ (لِيَدْعُوَنِى إلى سُرْعَةِ الجَرْيِ) فَلا يَكادُ يَمَسُّنى وَشِيبُ سَوْطِهِ (طَرَفُهُ) حَتَّى أنْطَلِقَ فِى عَدْوِى كالرِّيحِ ، وَلَسْتُ أشْكُو شَيْئاً مِنْ هٰذا السَّيِّدِ الكَرِيمِ ، بَلْ أرانِي جِدَّ سَعِيدٍ فِى دارِهِ ! »

أبو دُلَف : (الخنزير) : « لا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ يُعْنَوْنَ بِكَ لِجمالِكَ وَرَشاقَتِكَ وَحُسْنِ قوامِك ، فهم يَغسِلونَ جَسَدَكَ ويُنَظِّفُونَه ، ويُرَجِّلون شَعرَكَ (يُمَشِّطُونَه) أَمَّا « أبو دُلَف » المِسْكِينُ ، فَلَيْسَ فى الدُّنْيا أَحَدٌ يُعْنَى بِأَمْرِهِ ، أو يَأْبَه (يَهْتَمُّ) لِشَأْنِه . وَلَيْتَهُمْ يَغْسِلون جَسَدِى — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — كما يَفْعَلونَ مَعَكَ . إِذَنْ أُصْبِحَ فى مِثْلِ جَمالِكَ وَرَشاقَتِكَ . »

لاحِقٌ : (الجواد) : « يا ابن عَمِّى يا أبا زِيادٍ ! أَوَ تظنُّنى لا أَنْفَعُ النَّاسَ — بَعْدَ مَوْتِى — كَما أَنْفَعُهُمْ فى حَياتِى ؟ لَقَدْ أَعْجَبْتُمْ بِشَعَرِيَ المُتَدَلِّى عَلَى رَقَبَتِى ، كما أَعْجَبْتُمْ بِذَيْلِيَ الطَّوِيلِ الَّذِى أَهُشُّ به الذُّبابَ ، فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدِى يَتَّخِذُ — مِنْ هٰذا الشَّعْرِ — زِينَةً لِسَرِيرِهِ . »

أبو دُلَف : (الخنزير) : « أوه ! إِنِّى أُقِرُّ لَكَ مُعْتَرِفًا أَنَّ الإنسانَ ذَكِيٌّ بارِعٌ ، وَأَنَّهُ خَبِيرٌ بِكُلِّ ما يعودُ عَلَيْهِ بالنَّفْعِ الجَزِيلِ . فَهُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُعْنَى بِنَفْسِهِ ، وَيَنْتَفِعُ بِكُلِّ ما يَكْتَنِفُهُ (يُحِيطُ بِهِ) مِنَ الحَيَوانِ والنَّباتِ فَلا غَرْوَ إذا عُمِّرَ (طالَتْ حَياتُهُ) وَعاشَ أَكْثَرَ مِمَّا نَعِيشُ ! »

الجُؤْذَرَةُ : (العجلة) : « لا تَنْسَوْا أَنَّنِى جِدُّ نافعةٍ للإنسانِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا أُمِّى ؟ لَقَدْ أَخْبَرْتِنى أَنَّ ضَرْعِى (ثَدْيِى) سيَدُرُّ اللَّبَنَ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ .

وَلَسْتُ أَشُكُّ فى أَنَّ « سُعادَ » الصَّغِيرةَ سَتَفْرَحُ بِهٰذَا اللَّبَنِ الطَّيِّبِ المَرِيِّ ، وَتَسْتَسِيغُ ما يَحْوِيهِ مِن زُبْدٍ دَسِمٍ هَنِيٍّ . »

الخَنْساء : (البقرة تخاطب العجلة) : « صَدَقْتِ يا بُنَيَّتِى ، فإِنَّكِ عَلَى وَشْكِ أن تُصبِحِى فى عِدادِ البَقَرِ وثَمَّةَ يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِلَبَنِكِ السَّائِغِ فى تَغْذِيَةِ أَطْفالِهِمْ ، وَيَتَفَنَّنُونَ فى صُنْعِ أَلْوانِ الجُبْنِ والزُّبْدِ ، وَما إِلَى ذٰلِكَ مِنْ لَذائِذِ الأَطْعِمَةِ . »

أُمّ فَرْوَةَ : (النعجة تخاطب البقرة) : « أَلا تَعْلَمِينَ — يا صَدِيقَتِىَ الخنساء — أَنَّ لَبَنِى يُعافِى المَرْضَى ، وَيُقَوِّى أَجْسادَهُمْ ؟ إِنَّنِى صادِقَةٌ إِذا قُلْتُ : إِنِّى أَكْثَرُ الحَيَوانِ نَفْعًا لِلإِنْسانِ . وَلَسْتُ أُباهِى (أُفاخِرُ) بِنَفْسِى ، وَلا أُغالِى بِقِيمَتِى — إِذا قَرَّرْتُ ذٰلِكَ فِى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ ، وما أَحْسَبُ أَنَّ أَىَّ دابَّةٍ مِن دَوابِّ الأَرْضِ تَنْفَعُ الناسَ بِمِقْدارِ ما أَنفعُهُمْ فَلا عَجَبَ إِذا أَحَبُّونا ، وفُتِنوا بِنا — مَعْشَرَ الخِرْفانِ — وجَعَلُونا مَضرِبَ الأَمْثالِ فى مَدْحِ خِلالِ الإِنسانِ . فَهُمْ يَقُولُونَ فِى أَمْثالِهِم ، وما أَصْدَقَهُم فِيما يَقولون : « إِنَّ فُلانًا وَدِيعٌ كالحَمَلِ ! »

أُمُّ الأَشْعَثِ : (العنز تخاطب النعجة) : « لَعَلَّكِ — يا أُمَّ فَرْوَةَ — تَمُرِّينَ

نَفْسَكِ على إلقاءِ الدُّرُوسِ عَلَيْنا . »

أُمُّ فَرْوَةَ : (النعجة) : (في سكون) : « إنَّهـا الْغَيْرَةُ والْحَسَدُ ، يَدْفَعانِكِ إلى السُّخْرِيَةِ مِمَّا أقُولُ . لَقَدْ عُرِفَ عَنْكِ حُبُّ الْمُشاكَسَةِ والْمُماكَسَةِ ، واشْتَهَرَ أمْرُكِ — بَيْنَ النَّاسِ — بالشَّراسَةِ وسُوءِ الْخُلُقِ ، لأنَّكِ دائِبَةٌ عَلَى الشِّجارِ والنِّزاعِ . والنَّاسُ يَمْقُتُونَ هٰذا الخُلُقَ الشَّرِسَ . وإنِّي أُكاشِفُكِ الْقَوْلَ : إنَّكِ قَليلَةُ الْغَناءِ ، حَقِيرَةُ الْفائِدَةِ . »

أُمُّ الأَشْعَثِ : (العنز تخاطب النعجة) : (مغضبة حانقة) : « كَيْفَ تُنْكِرِينَ فائِدَتِي ؟ أَعَنْ جَهْلٍ تَفْعَلِينَ ذٰلِكَ ، أمْ عَنْ تَجاهُلٍ ؟ إنَّ الناسَ يُطْلِقُونَ عَلَيَّ دائمًا ذٰلِكَ اللَّقَبَ الْحَبِيبَ إلَى نَفْسِي ، فَيَقُولُونَ : « بَقَرَةُ الْمَساكِينِ والْفُقَراءِ ! » . إنكِ خَبِيثَةٌ — يا أُمَّ فَرْوَةَ — لِأَنَّكِ تجرُئِين على إنْكارِ فَوائدِيَ الْعَمِيمَةِ ، ومزايايَ الْعَظِيمَةِ ، وتَجْحَدِينَ فَضْلِي عَلَى النَّاسِ . وَلَسْتُ أَدْرِي : أَيُّ مِيزَةٍ انْفَرَدْتِ بِها — مِنْ بَيْنِ الدَّوابِّ — فَمَلأَتْ نفْسَكِ صَلَفًا (كِبْرًا) وغُرورًا وادِّعاءً ، حتى زعمتِ أنَّ لبنَكِ الَّذِي . . . . »

أُمُّ فَرْوَةَ : (النعجة) : (تنمو بصوتها اللطيف) : « لا تغضَبِي يا أُمَّ الأَشْعَثِ ، ولا تَتَمادَيْ فِي صَخَبِك (ضَجَّتِكِ) ، فإنَّ الأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا تَظُنِّينَ . وَفِي

قُدْرَتِنا أن نُناقِشَ — فِي غَيْرِ غَضَبٍ — وأن نُدْلِيَ بِحُجَّتِنا من غيرِ منافرةٍ أو مُلاحاةٍ . . . . ألا تُقِرِّينَ — قبل كلِّ شيْءٍ — أنِّي عَظِيمَةُ الْفائِدَةِ لِلنَّاسِ ؟ فإذا أنْكَرْتِ هٰذا فَخَبِّرِينِي — بِرَبِّكِ يا عَزِيزَتِي — كَيْفَ يَعِيشُ الْإِنْسانُ إذا فَقَدَ نِعاجَهُ وكِباشَه ؟ وكيف يقضي فَصْلَ الشِّتاءِ ، ويتَّقِي غائلةَ البَرْدِ ، إذا حُرِمَ صُوفَنا النافعَ الذى لا غِنَى لهُ عنه ، ولا بُدَّ لهُ منه ؟ لا شكَّ أنه يموت من شدَّةِ البَرْدِ ، لأنه يتَّخذ من صُوفِنا : جَوْرَبَه الذى يغطِّي به ساقَيْه ، وقَمِيصَه الذى يُغَطِّي به صَدْرَه ، ودِثارَه وثِيابَه الغليظةَ التي تجلب له الدِّفْءَ . ومن عظمى يَصْنَعُ الأَزْرارَ وأَيْدِي المُدَى (السكاكين) . ومن أظلافِي (حوافري) يَسْتَخْرِجُ الغِراءَ وما إلى ذٰلك . فكيف تجحَدِين فضلي ، أو تُنكرين مزايايَ الباهرةَ ؟ إنِّي أُقَرِّرُ لك — فِي غير زَهْوٍ — أنَّ الإنسانَ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَعِيشَ بِفَقْدِي ، ولا سبيلَ له إلَى جَحْدِ فضلي عليه . »

(تنظر دواب الاصطبل إلى النعجة ، وقد استولى عليها العجب والدهشة جميعاً ، وقد أعجبت الدواب كلها بتلك الحجج القوية التى أدلت بها النعجة فى فصاحة ووضوح .)

أم الأشعث : (العنزة) : (تسرع قائلة) : « أتحسَبِين أنك انفردْتِ بهٰذه الْمِيزَةِ

— يا أمَّ فروةَ — من بين دوابِّ الأرض قاطبةً (جميعاً) ؟ كلاَّ يا عزيزتى ، لم تنفردى بها ؛ فقد حدَّثتْنى أمِّى أن دابَّةً من بناتِ عمِّى — تعيش فى بعض البُلدان النائيةِ — لها شَعْرٌ طويلٌ ناعمٌ ، وأثبتتْ لى أنَّه أفضلُ من صوفِك وأجملُ ، وأنَّ الناسَ يصنعون منه ثياباً أفخمَ من تلك الَّتى يصنعونها من صوفِك ، وألينَ مَلْمَساً ، وأغلَى ثمناً . وقد عاش بعضُ جيراننا فى خَيمةٍ مَنْسُوجةٍ من شَعَرِنا المَتينِ ، كما حدَّثتْنى بذلك أُمِّى ، من حديث طويل ، ختمتْهُ قائلةً : « إنَّنا — مَعْشرَ المَعِيزِ — قد أَصْبَحْنا مَضْرِبَ المَثلِ فى القَناعة بكلِّ ما نَحْصُلُ عَلَيْهِ من الغِذاء الذى لا يَقْنَع به غيرُنا من الدوابِّ . فنَحْنُ نكتَفِى بما نَلْقاهُ فى طريقنا مِنَ الْحَشائشِ وقِشْرِ الشَّجَرِ ، ونقنَع بما يُقدَّمُ إلينا من قشر البطِّيخ وفَضَلاتِ الأَطْعِمَةِ ، ونَسْتَمْرِئُ فُتاتَ الخُبْزِ الجافِّ . . .

أم فَرْوَةَ : (النعجة) : « لستُ أعرفُ ابنةَ عمِّك هٰذه ، وما أدرى ما هِىَ ، لأنى لم أرَها طُولَ حياتى قطُّ . ومهما يكُن من أمرٍ ، فإنكِ قليلةُ الفائدةِ يا أمَّ الأشعث . وليس فيك من المِيزات ما يدعوكِ إلى الزَّهْوِ والمُباهاةِ . ألا تَرَيْنَ تلكِ الخُصَلَ الجامدةَ — من الشَّعْرِ — الَّتى فَوْقَ ظَهْرِك ؟

فخبِّرينى : أىُّ فائدةٍ تُرْجَى منها ؟ وأىُّ ثَوْبٍ جَميلٍ يُصْنَعُ مِنْ نَسِيجِها ؟ أتُحِبِّينَ أن أُخْبِرَكِ عَمَّا يَصْلُحُ لهُ جِلْدُكِ هٰذا ؟ إنَّ الناسَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ — بَعْدَ مَوْتِكِ — سِياطاً لِتأديبِ الكِلابِ العاصيةِ المُتمرِّدةِ ! »

أم الأَشْعَث : (العنز) : (تخاطب النعجة) : « لَسْتُ أَعْرِفُ إلَّا مَخْلوقاً واحِداً جَدِيرًا بالعِقاب والتأديبِ ، هو أنتِ يا عَزِيزتى . فتَرَيَّثِى (تَمَهَّلِى وانْتَظِرى) قليلًا حتَّى نَخْرُجَ إلى الخَلاء ، وأنا زعيمةٌ (كَفِيلَةٌ) لكِ بتأديبِك وسيُعَلِّمُكِ قَرْنَاىَ كيف تُحْسِنِينَ القَوْلَ فيما بَعْدُ ! »

الطَّلِيُّ : (الحمل) : (بصوته الصغير المضطرب) : « كُونى على ثقةٍ أنى لا أرضَى أن تَضرِبِى أمى ، ولن أُمَكِّنَكِ مِنْ ذٰلكِ ! »

ابنُ وازِع : (كلب الحرس ، وهو جاثم أمام الباب) : « عَوْ ! عَوْ ! ألا تَكُفُّونَ عَنْ هٰذا الصَّخَبِ أيُّها العابِثُونَ المُسْتَهْتِرُونَ !

يا ساكِنى الإصطبلِ ، يا ساكِنِى الزَّرِيبَةِ ، يا ساكِنى المَرْبِضِ ، يا ساكِنِى المَعْطِنِ : هٰذِهِ ثَرْثَرةٌ لا تُطاقُ . ما بالُكم تتصايَحُونَ (يَصِيحُ بَعْضُكُمْ بِبَعض) هَلْ جُنِنْتُمْ هٰذا المَساء ؟ لَقَدْ أزْعَجْتُمُونِى ، ونَغَّصْتُم عَلَىَّ صَفْوَ مَنامى . ألا إنِّى مُنْذِرُكُم أنَّنِى مُفْضٍ إلى سَيِّدِى (مُحدِّثُهُ ومُخْبِرُهُ).

تسكت الدواب جميعاً ، وتدير الخنساء لسانها الجاف فى مزودها ، وتجتر أم فروة ، ويجثو العِجل تحتها ليشرب من ضرعها جرعات من اللبن. أما أبو دلف فيقترب من الحائط ، ويظل يحك جسمه بها . ويحرك أبو زياد أذنيه الطويلتين . ثم تخرج فأرة من جحرها فيفزع « أبو بجير » ويقفز — من شدة الذعر — فتعود الفأرة إلى جحرها خائفة . وتدق الساعة اثنتى عشرة دقة ، ويعود ابن وازع إلى وجاره .

بِما تَفْعَلُونَ ، إذا لم تَكُفُّوا عَنْ هٰذا الشَّغَبِ . وَهُوَ — فِيما أَرَى — كَفِيلٌ بتأديبِكم . فَحذارِ أنْ أسْمَعَ صَوْتًا بَعْدَ الآنَ ؟ »

الخنساء : (البقرة) : (بصوت منخفض بعد صمت طويل) : « يَسْتَحِيلُ عَلَيَّ النَّوْمُ فِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ . شَدَّ ما أخطأَتْ « أُمُّ فَرْوَةَ » وَ « أُمُّ الأشْعَثِ » ! لقد خرجَتا عن جادَّةِ الأدب (طَرِيقِهِ) فى حِوارِهما (مُناقَشَتِهما) ، وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِمِثْلِ هاتَيْنِ الصَّدِيقَتَيْنِ الْمُؤَدَّبَتَيْنِ أن تَخرُجَ بهما الْمُناقشة ، وتَصِلَ إِلَى هٰذا الحدِّ . إنَّهُما ابنتا عَمٍّ ، وليس يَجْدُر بالأقاربِ أن يتنازعوا .. فَهَلُمِّى يا « أم فروةَ » وأَتِمِّى حديثَكِ الذى بَدَأْتِه ، حَتَّى نَتَعَرَّفَ فوائدَكِ كلَّها . »

أُمُّ فَرْوَةَ : (النعجة) : « أُتِمُّ حَدِيثِى بكلِّ ارتياح يا عزيزتى ، إذا ضَمِنْتِ لى صَمْتَ « أمِّ الأشعثِ » واعتِصامَها بالْهُدُوءِ .. لقد حدَّثْتُكم — يا رِفاقُ — أن لبنى لذيذُ الطعْمِ ، وأنَّ لحْمِى شَهِىٌّ ، سائغٌ هَنِىءٌ . ولَسْتُ أَغْلُو وَلا أُسْرِفُ ، إذا قُلْتُ لَكُمْ : إنَّهُ أَفْضَلُ لَحْمٍ فى الدُّنْيا . »

أم الأَشْعَثِ : (العنز) : « ولا تَنْسَىْ أَنِّى أنا أيضاً . . . »

الْخَنساء : (البقرة) : « اسْكُتِى — يا أمَّ الأَشْعَثِ — واصْبِرِى حتَّى يَأْتِىَ دَوْرُكِ ! »

أم فروةَ : (النعجة) : « إنى لم أُتِمَّ كلامى بعدُ . . . فاعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ يَتَّخِذُونَ
من مَصارِينى – بعدَ مَوْتى – أَوْتارًا للكمانِ والقيثارَةِ ، لِيَعْزِفوا
عليهما بأعْذَبِ الألحانِ ، وأَرْوَعِ الأنغامِ ، الَّتى تَشْجُو السامعين
(تحزُنُهُمْ) وتُبْكيهم . »

أم الأشْعَثِ : (العنز) : « ما أعْجَبَ أمْرَكم أيُّها الإخوانُ الأعِزَّاء . . .
فأبو زِيادٍ يَدُقُّ طُنْبُورَه ، وأنتِ – يا أُمَّ فروةَ – تعزِفِينَ عَلَى كَمانِكِ .
ومِنكما تتألَّفُ مُوسِيقَى مُزْدَوجَةٌ بارِعةٌ ! »

أم فَرْوة : (النعجة تخاطب العنز فى هدوء) : « لا تَسْخَرِى مِنِّى – أَيَّتُها الرَّفِيقةُ
العزيزةُ – فإنى مُلَخِّصَةٌ لكِ طائفَةً مِنْ فَوائدى التى أجودُ بها للناس .
فهلُمِّى – يا ابنةَ العمِّ – وعُدِّى عَلَى قَرْنَيْكِ ما أنا ذاكِرتُه :
أولًا : أجودُ لَهُمْ بِلَحْمِى .
ثانيًا : أَمْنَحُهُمْ جِلْدِى .
ثالثًا : أُعْطِيهِمْ مَصارِينى ، لِيَصْنَعُوا مِنْها أَوْتارَ الكَمانِ .
رابعًا : لا أَضَنُّ عليهم بما يَدُرُّه ضَرْعى منَ اللَّبَنِ السَّائغِ الشَّهِىِّ .
خامسًا : لا أَبْخَلُ بِشَحْمِىَ الَّذِى يَصْنَعُونَ مِنْهُ الشَّمْعَ .

سادسًا : أدُرُّ عَلَيْهِمْ لَبَنِىَ الَّذى يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ والجُبْنَ والقِشْدَةَ .
وبعدُ ، أفلا يَكْفِيكِ هٰذا ؟ أتُرِيدِينَ أَنْ أَسْتَرْسِلَ فى عَدِّ مآثِرى ،
ومِيزاتِىَ النادِرةِ ؟ أم يُحْسِبُكِ (يَكْفِيكِ) هٰذا القَدْرُ ! »

الخنساء : (البقرة تخاطب النعجة) : « أَحْسَنْتِ – يا أُمَّ فَرْوَةَ – وقَدْ أَقْرَرْنا
لكِ جميعًا بالسَّبْقِ ، واعْتَرَفْنا أنَّكِ مِنْ أَنْفَعِ الدَّوابِّ لِسَيِّدِنا الإنسانِ .
والآنَ جاءَ دَوْرُكِ يا أُمَّ الأشْعَثِ ، فاذْكُرِى لَنا مزاياكِ ، عَلَى أَنْ تتحدَّثى
إلينا بصوتٍ هادئٍ رزينٍ ، حَتَّى لا يسمَعَك « ابنُ وازعٍ » (الكلب)
فينغِّصَ عَلَيْنا صَفْوَنا . »

أُمُّ الأشْعَثِ : (العنز) : « أَنا أَمْنَحُ سَيِّدى مِقْدارًا كبيرًا مِنَ اللَّبَنِ الدَّسِمِ ،
الَّذى يَحْوِى مِنْ عَناصِرِ التَّغْذِيَةِ شَيْئًا كَثِيرًا . وهُوَ يَشْفِى المَرْضَى
– كَما تَعْلَمُونَ – ويُغَذِّى صِغارَ الأطفالِ . ولا تَنْسَوْا أَنِّى خَيْرُ مُعِينٍ
لِلْفُقَراء ، لأنِّى أقنَعُ مِنَ الغِذاءِ بالتَّافِهِ القليلِ ، وأَجُودُ لَهُمْ ولأوْلادِهِمْ
بالغِذاءِ الطَّيِّبِ الوفيرِ (الكثيرِ) . ثم إن لحمى سائغٌ شهِىٌّ ، ولن
يَضِيرَنى أنِّى نحيفةُ الجسمِ ، وأَنَّ لَحْمِى – لِذٰلكِ – جامِدٌ شَيْئًا مَّا .
عَلَى أَنَّ هٰذا لَيْسَ مِنْ خَطَئى ، فَقَدْ أدَّيتُ – على كلِّ حالٍ – واجِبى .

وليس جلْدِى بأقلَّ مِنْ جِلْدِ غيْرِى صَلاحِيَةً للنَّاسِ . »

الخنساء : (البقرة) : « لَسْنا نَشُكُّ — ياأمَّ الأشْعَثِ — فى نفْعِك . ولئن حُرِمْتِ الصُّوفَ الذى مُنِحَتْه أمُّ فَرْوَةَ ، لقَدْ وَهَبكِ اللهُ مِيزَةً أُخرى ، فإنَّكِ تَدُرِّين مِقْدَارًا كبيرًا مِنَ اللَّبَنِ السائغِ الَّذِى يَحْوِى قِشْدَةً فاخِرَةً . وَحَسْبُكِ — ياعزيزتى — أنَّكِ مُؤْنِسَةُ الفقيرِ ، ومُعِينَتُهُ ، ومانِحَتُهُ كلَّ ما تَمْلِكِينَ ، فانْعمِى بحُبِّ الفقيرِ إيَّاكِ ، فقَدْ بَذَلتِ له وُسعَك ، وحاولتِ إمْكانَكِ . ولَيْسَ يُطْلَبُ مِنْكِ أَكْثَرُ من ذٰلك . لقَدْ آمَنَّا بفَضْلِكِ ، واعْتَرَفْنا بمَزَاياكِ وَنَفْعِكِ . فهَلْ يَسُرُّكِ هٰذا الاعْتِرَافُ ؟ اذْهَبِى — إذَنْ — ياعَزِيزَتِى فصالِحِى أُمَّ فَرْوَةَ . »

أُمُّ فَرْوَةَ : (النعجة) : (تقترب من العنز وتنظر إليها بعينيها اللطيفتين والدمع يترقرق فيهما) :

« اصْفَحِى عنِّى — ياأمَّ الأشْعَثِ — واغْفِرِى لِى طَيْشِى وحَماقَتِى ، فقدْ حَزَنَنى وآلمَنِى — لوْ تَعْلَمِينَ ! — أنِّى كُنْتُ مَصْدَرَ مُضايَقتِكِ ، ومَبْعَثَ غَضبِكِ ، فلْنَعُدْ صَدِيقتَيْنِ ، كَما كُنَّا مِنْ قَبْلُ :

ولا كانَ ، وَلا صارَ   ولا قُلْتُمْ ، ولا قُلْنا
وَما أَحْسنَ أَنْ نَرْجِعَ   لِلْوُدِّ كما كُنَّا !

فَهَلْ تَصْفَحِينَ ؟ »

(تتقدم العنز إلى النعجة وتلحس طرف فمها متوددة فرحانة ، وهكذا يتم الصلح بينهما . وقد ساد الكرى — حينئذ — واستولى النوم على أكثر دواب الإصطبل ، وعلا تنفس «لاحق» و«أبى زياد» ، كما علا شخير «أبى دلف» الذى انتحى ركنا من الإصطبل حيث مد رجليه واستسلم للنوم . ورقد «الطل» و «أبو بجير» جنباً إلى جنب ، ثم سرى النوم إلى الباقين ، فأخذوا يغمضون أجفانهم شيئاً . ثم نام الجميع وراحوا فى سبات عميق)

٢ — عالم الإصْطَبْل

الفصل الأول

١ — صَوْتٌ فى اللَّيل

قالتْ بَطَلَةُ القِصَّةِ « قسامَةُ » تُحَدِّث نَفْسَها ذاتَ لَيْلَةٍ :

« أَىُّ صَوْتٍ هٰذا الّذى يَنْبَعِثُ فى سُكُونِ اللّيْلِ فَيُوقِظُنى منْ سُباتِىَ الآنَ ، ويُنَبِّهُنى مِنْ نَوْمِىَ العَمِيقِ !

أَىَّ نَهيقٍ أَسْمَعُ ؟ وما بالُ هٰذا الطّارِقِ (الزّائِرِ) فى اللّيْلِ الغاسِقِ (الشّدِيدِ الظّلامِ) يَضْطَرُّنِى إلَى النُّهُوضِ مِنْ فِراشِىَ الْوَثِيرِ (اللَّيِّنِ النّاعِمِ) وَتَرْكِ وِسادَتِىَ الطّرِيفَةِ المُؤَلَّفَةِ مِنَ القَشِّ ، وأَنا مُسْتَسْلِمٌ لِلرّاحَةِ والدَّعَةِ (الهُدُوءِ والسَّكِينَةِ) !

لَقَدْ رَفَعْتُ رأْسِى ، ونَصَبْتُ أُذُنَىَّ ، وأَرْهَفْتُ مِسْمَعَىَّ ، لِأَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الخَبَرِ (حَقِيقَتَهُ) .

٢ — فَزَعُ « قسامة »

كانَ الإصْطَبْلُ قاتِماً (مُظْلِماً) جدًّا فَلَمْ أَتَبَيَّنْ — فِى ظَلامِهِ الحالِكِ

(الشّدِيدِ السَّوادِ) — شَيْئاً مِمّا حَوْلِى ، وكانَ مَرْبَطِى أَقْرَبَ مَرابِطِ الإصْطَبْلِ وأَدْناها إلى البابِ (أَقْرَبَها مِنْهُ) ، وَقَدِ اضْطَرَبَ جِسْمِى وارْتَعَشَ حِينَ سَمِعْتُ نَهِيقَ ذٰلِكَ الزّائِرِ المُفاجِئِ يَتَكَرَّرُ فى فَتَراتٍ مُتَقَطِّعَةٍ ، وَفِيهِ رَنَّةُ حُزْنٍ لا تَخْفَى عَلَى سامِعِهِ .

٣ — سائِسُ الإصطبل

وسَمِعْتُ صَوْتَ سائِسِنا « شَفِيقٍ » وأَحْسَسْتُ دَبِيبَ أَقْدامِهِ (وَقْعَ أَرْجُلِهِ) وقَدِ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ اللّذِيذِ . وكانَ يَأْوِى إلى غُرْفَةٍ خَشَبِيَّةٍ فِى أَعْلَى الإصْطَبْلِ بِجِوارِ مَخْزَنِ الدَّرِيسِ . لَقَدْ كانَ آيَةً مِنْ آياتِ الرَّحْمَةِ ، ومَثَلًا مِنْ أَمْثِلَةِ النَّجْدَةِ . فَلا عَجَبَ إذا لَمْ يَتَبَرَّمْ (لَمْ يَضْجَرْ) بِضَيْفِهِ ، ولَمْ يَضِقْ بِهِ ذَرْعًا (لَمْ تَضْعُفْ طاقَتُهُ عَنِ احْتِمالِهِ) بَلْ نَهَضَ مِنْ فِراشِهِ ناشِطاً مُلَبِّياً (مُجيباً) داعِىَ المُرُوءةِ . وهَبَطَ مِنْ سُلَّمِهِ الخَشَبِىِّ إلَى أَرْضِ الإصْطَبْلِ — وفِى يَدِهِ مِصْباحُهُ — وفَتَحَ البابَ الخارِجِىَّ لِلإصْطَبْلِ لِيُدْخِلَ ذٰلِكَ الضَّيْفَ المِسْكِينَ . وكانَ « شَفِيقٌ » يُجَمْجِمُ كَلامَهُ (يَنْطِقُ بِأَلفاظٍ لا يَتَبَيَّنُها سامِعُها) ، ويُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَلفاظٍ مُتَقَطِّعَةٍ عَلَى طَرِيقَتِهِ الّتى أَلِفْناها (تَعَوَّدْناها) منْهُ ، فَلَمْ تَبْقَ غَرِيبَةً عَلَيْنا .

٤ — تبادل الإخلاص

وَلَوْ رَآهُ غَيْرُنا — مِمَّنْ لا يَعْرِفُهُ — لَحَسِبَهُ غاضِباً عَلَى هٰذا الضَّيْفِ الطَّارِقِ (زائِرِ اللَّيْلِ) الذى أَيْقَظَهُ مِنْ رُقادِهِ اللَّذِيذِ . أَمَّا نَحْنُ — مَعْشَرَ دَوابِّ الإِصْطَبْلِ — فَقَدْ خَبَرْناهُ وعَرَفْنا نَبالَةَ خُلُقِهِ (نَجابَتَهُ) وكَرَمَ عُنْصُرِهِ (طِيبَ أَصْلِهِ) . وقَدْ أَصْفَيْناهُ الْوُدَّ (صَدَقْناهُ الإخاء) ، ومَحَضْناهُ (أَخْلَصْنا لَهُ) الْحُبَّ ، مُنْذُ قَدِمَ عَلَى الإِصْطَبْلِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وهُوَ يافِعٌ (شابٌّ ناشِئٌ) فبادَلَنا الإِخْلاصَ ، وغَمَرَنا بِأَيادِيهِ (بالَغَ فِى الإِحْسانِ إِلَيْنا ، وأَغْدَقَ عَلَيْنا صَنائِعَهُ ونِعَمَهُ) ، وامْتَلَكَ نُفُوسَنا بِأَلْفاظِهِ الرَّقِيقَةِ . وكانَ لا يَنِى (لا يَكْسَلُ) عَنْ تَرْبِيتِ ظُهُورِنا (مَسِّها بِيَدِهِ ، تَحَبُّباً إِلَيْنا ، واسْتِجْلاباً لِمَوَدَّتِنا) ، وهُوَ يَبْتَسِمُ — فِى لُطْفٍ وحَدَبٍ (تَعَطُّفٍ) — كُلَّما مَرَّ بِنا .

وهُوَ شَدِيدُ الإِعْجابِ بِى ، دائِمُ الْعَطْفِ عَلَىَّ . وقَدِ اخْتارَ لِى أَحَبَّ الأَسْماءِ ، فَأَطْلَقَ عَلَىَّ اسْمَ « قَسامَةَ » (حُسْنٍ) لِأَنَّنِى — فِيما يَرَى — أَجْمَعُ بَيْنَ جَمالِ الصُّورَةِ ، وكَرَمِ الطَّبْعِ ، وحِدَّةِ الذَّكاءِ . كما سَمَّى وَلَدِىَ الصَّغِيرَ « سَوادَةَ » وأَطْلَقَ عَلَيْهِ لَقَبَ « زادِ الرَّكْبِ » . وهُوَ يُؤْثِرُنِى (يُفَضِّلُنِى) ومُهْرِى عَلَى كُلِّ فَرَسٍ .

٥ — أَشْهُرُ الْحَمْلِ

وما أَنْسَ لا أَنْسَ لِهٰذا الرَّجُلِ الْكَرِيمِ فَضْلَهُ عَلَىَّ فِى أَشْهُرِ الْحَمْلِ ، فَقَدْ بَذَلَ ما فِى وُسْعِهِ فِى الْعِنايَةِ بِأَمْرِى ، حِينَ كُنْتُ عُشَراءَ ، وظَلَّ يَتَعَهَّدُنِى ويَرْعانِى أَحَدَ عَشَرَ شَهْراً كامِلَةً ، حَتَّى وَضَعْتُ وَلَدِىَ الْبِكْرَ « زادَ الرَّكْبِ » . وكانَ يُعْنَى بِرِياضَتِى ، وتَنْظِيفِ مَرْبَطِى وفِراشِى ، وتَنْقِيَةِ غِذائِى ، وجَلْبِ الْماءِ فِى إِناءٍ نَظِيفٍ . ولَمْ أُتِمَّ الشَّهْرَ التَّاسِعَ مِنْ أَشْهُرِ الْحَمْلِ ، حَتَّى ضاعَفَ عِنايَتَهُ ، وأَراحَنِى مِنْ كُلِّ عَمَلٍ . وكانَ يُحِلُّنِى فِى النَّهارِ أَجْمَلَ مَحَلٍّ خارِجَ الْحَظِيرَةِ ، حَيْثُ الْهَواءُ الطَّلْقُ ، فَإِذا جَنَّ اللَّيْلُ (أَظْلَمَ) أَحَلَّنِى أَرْحَبَ مَكانٍ فِى الْحَظِيرَةِ . وما زالَ يَغْمُرُنِى بِعَطْفِهِ ولُطْفِهِ ، ويُجَلِّلُنِى (يُغَطِّينِى) بِثَوْبٍ غَلِيظٍ يَقِينِى أَذَى التَّيَّارِ ، حَتَّى أَتْمَمْتُ الشَّهْرَ الْحادِىَ عَشَرَ .

٦ — فِى عالَمِ الأَحْلامِ

فَلَمَّا انْتَصَفَ الشَّهْرُ الثَّانِى عَشَرَ — أَوْ كادَ — رَأَيْتُ فِى مَنامِى حُلُماً عَجِيباً ، هَشَّتْ (فَرِحَتْ) لَهُ نَفْسِى ، وابْتَهَجَ لِرُؤْيَتِهِ قَلْبِى أَيَّما ابْتِهاجٍ . وما

أنس لا أنس ما حييت طيب هذا المنام.

فقد رأيتني بين جماعة من كرائم الأفراس والمهار، وقد أقبلن على فرحات، واستقبلن مولودي الجديد مهللات، صاهلات بأعذب الأغاني منشدات، محمحمات بأغاريدهن مترنمات.

وقد علمت من حديثهن أنهن طائفة من سوالفنا الكريمات، وجداتنا العربيات الأصيلات، في العصور الغابرات (القديمات). وقد روين لي من بدائع الأخبار، وعجائب الأسمار، ما لم يكن ليخطر لي على بال. وعرفت منهن طائفة نبيلة لبعض أمراء العرب القدامى (القدماء) من الأعوجيات (بنات «أعوج» جدنا العظيم) التي يفخر بها تاريخنا الحافل المجيد. وما زلت أتمثل تلك الوفود الكريمة — من بنات «المسجدي» وبنات «أعوج» — وقد فاضت وجوههن بشرا.

واشترك منهن في الغناء «ذو العقال» و«داحس»، و«الغبراء»، و«سبل»، و«علواء»، و«الجرادة»، و«الخطار»، و«الحنفاء»، و«الشقراء»، و«العوجاء»، و«السماء»، و«الزعفران»، و«الكميت»، و«البطين»، و«الصريح»، و«الوصيف»،

و«أعوج الأصغر»، و«أعوج الأكبر»، و«الدينار»، وولده «المجوس»، وما إليهن من كرائم الخيل اللائي تبهج لأخبارهن، وتعتز بالانتساب إليهن.

٧ — المولود الجديد

وانتبهت من نومي فرحة مستبشرة، ولم تنقض ساعات قليلة حتى وضعت — في عالم اليقظة — هذا المولود الذي رأيته في عالم الأحلام. وثمة أسرع السائس إلي — من فوره — فمزق الأغشية التي كانت تحيط بالجنين. ولقد أحسن إلي الإحسان كله — بما فعل — فقد علمت أنه لو غفل ذلك (لو تركه)، لاختنق الجنين عقب ولادته. ثم قدمه لي كي ألعقه لأكسبه شيئا من النشاط. لله ما أجمله! نفسي فداء هذا المولود الظريف: لقد هم بالنهوض محاولا أن يقف على أقدامه — كما تقف أمه — فلم يقو على ذلك. وظل يترجح — يمنة ويسرة — مرة بعد أخرى، ثم يقع على أحد جنبيه فوق الفراش الوثير (اللين) الذي عني السائس بإعداده، وأنا جد مشفقة عليه. ولم تمر على هذه المحاولات

نِصْفُ ساعَةٍ تقريباً حَتَّى اسْتَمْسَكَ ، وقَوِيَتْ أقْدامُهُ على النُّهوضِ ، فَوَقَفَ مُتَثَبِّتاً ، دُونَ أنْ يَقَعَ عَلَى الأرْضِ . وما لَبِثَ أنِ اهْتَدَى إلى ضَرْعِي (ثَدْيِي) (والضَّرْعُ لَنَا - مَعْشَرَ الأفْراسِ ولِغَيْرِنا مِنَ الشَّاءِ والبَقَرِ ونَحْوِها - مُدِرُّ اللَّبَنِ : مِثْلُ الخُلْفِ للنَّاقَةِ ، والثَّدْيِ لِلْمَرْأةِ) . ولَمْ أعْجَبْ لِذلِكَ ، فَقَدْ أرْشَدَتْهُ إلَيْهِ فِطْرَتُهُ السَّلِيمَةُ ، وغَرِيزَتُه (طبيعَتُهُ) القَوِيمَةُ . وأقْبَلَ عَلَيَّ فرَضَعَ مِنْ ضَرْعِي ما شاء حَتَّى ارْتَوَى وشَبِعَ . ولَمْ يَنْسَنِيَ السَّائِسُ ، بَلْ عُنِيَ بِي في الصَّباحِ ، فَغَسَلَ ذَيْلِي وأرْجُلِي وأفْخاذِي . وأحْضَرَ لِي غِذاءً طَيِّباً : مِنْ بِرْسِيمٍ شَهِيٍّ ، وماءٍ دافِئٍ هَنِيٍّ .

* * *

وما زالَ يَتَعَهَّدُنِي فِي أيَّامِ الرَّضاعِ حتَّى عادَتْ إلَيَّ صِحَّتِي ونَشاطِي فِي أقْرَبِ وَقْتٍ . وقد أطْلَقَ عَلَى وَلِيدِيَ العَزِيزِ لَقَباً طَرِيفاً يَدُلُّ عَلَى ذَوْقٍ عالٍ أصِيلٍ ، وهُوَ : « زادُ الرَّكْبِ » . وَقَدْ أصْبَحَ « زادُ الرَّكْبِ » أحَبَّ مَخْلُوقٍ إلى نَفْسِي ، فِي هٰذِهِ الدُّنْيا ، وَقَدِ ابْتَهَجْتُ بِما يَنْعَمُ بِهِ مِنْ صِحَّةٍ وعافِيَةٍ . وَلَمْ يَنْقَضِ عَلَى هٰذا المَوْلُودِ أُسْبُوعٌ واحِدٌ حَتَّى أصْبَحَ قادِرًا على الجَرْيِ إلى جانِبِي ، وصارَ يَدُورُ مِنْ حَوْلِي فِي ذٰلِكَ المَرْعَى الفَسِيحِ .

الفصل الثاني

١ - الضَّيْفُ الهَزِيلُ

لَقَدْ دارَتْ بِرَأْسِي هٰذِهِ الذِّكْرَياتُ وَأمْثالُها ، حِينَ خَرَجَ السَّائِسُ مِنَ الحَظِيرَةِ ، لِيَسْتَقْبِلَ ذٰلِكَ الضَّيْفَ النَّاهِقَ الحَزِينَ ، الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ فِي الفصل السَّابق وَمَرَّتْ بِذِهْنِي سِراعاً أطْيافُ الذِّكْرَياتِ ، كَما تَمُرُّ الأحْلامُ . فَلَمَّا بَلَغَ بِهِ البابَ نَهَضْنا - مَعْشَرَ الدَّوابِّ - عَلَى قَوائِمِنا (أقْدامِنا) لِاسْتِقْبالِهِ ، وأطْلَلْتُ بِرَأْسِي - مِنْ أعْلَى بابِ مَرْبَطِي - فَرَأيْتُ عَيْنَيْنِ مَذْهُوشَتَيْنِ تَفْحَصانِ عَنْ كُلِّ ما يَعْرِضُ لَهُما ، وهِيَ سائِرَةٌ فِي طَرِيقِها إلَى مَرْبَطِها . وَكُنْت - كَما حَدَّثْتُكَ - أقْرَبَ دوابِّ الإصْطَبْلِ إلَى البابِ ، فَكُنْتُ أوَّلَ مَنْ رَأى ذٰلِكَ الرَّفِيقَ التَّاعِسَ الَّذِي رَحِمَهُ سائِسُنا « شَفِيقٌ » مِنَ المَطَرِ الغَزِيرِ (الكَثِيرِ) ، وَأنْقَذَهُ مِنْ غائِلَةِ البَرْدِ القارِسِ (نَجَّاهُ مِنْ شِدَّتِهِ المُهْلِكَةِ) . وَكانَ الضَّعْفُ قَدْ بَلَغَ بِضَيْفِنا كُلَّ مَبْلَغٍ ، فَأضْناهُ (أسْقَمَهُ وَأمْرَضَهُ) ، وَهَدَّ قُواهُ ، وَهَزَلَ جِسْمُهُ ، فَأصْبَحَ أدْنَى

(·رب) إلَى الْموْتِ مِنْهُ إلى الْحَياةِ .

٢ — ابنُ الْعَمِّ

وشَعَرْتُ بِحُزْنٍ شَديدٍ مِنْ أجْلِ هٰذا الضَّيْفِ التَّاعِسِ ، وَقَدْ كُنْتُ خَلِيقَةً (جَديرَةً) أنْ أبْتَهِجَ (أفْرَحَ) لَهُ ، لِأنَّ حَظَّهُ الْحَسَنَ قَدْ ساقَهُ إلى حَظِيرَتِنا الْوادِعَةِ (الساكِنَةِ الْهادِئَةِ) الَّتِي نَأْوِي إلَيْها . وما أجْدَرَهُ بِحُبِّي ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أبْناءِ عُمُومَتِيَ الْمُقَرَّبِينَ . لَقَدْ بَدا لِعَيْنَيَّ — حِينَئِذٍ — ما لَقِيَهُ مِنْ سُوءِ الْمُعامَلَةِ . فَقَدْ تَشَعَّثَ شَعْرُهُ (تَفَرَّقَ) وَتَلَبَّدَ فِي بَعْضِ جِهاتِهِ ، وَنَسَلَ (انْتَفَشَ وَسَقَطَ) مِنْ جِهاتٍ أُخَرَ . وَظَهَرَ الشَّيْبُ وَالْهُزالُ عَلَيْهِ ، فَخُيِّلَ لِمَنْ يَراهُ ، أنَّهُ قَدْ أصْبَحَ هَيْكَلًا عَظْمِيًّا يَتَهافَتُ (يَتَساقَطُ) مِنَ الضَّعْفِ ، وَهُوَ يَمْشِي إلى مَرْبَطِهِ الْخالِي فِي آخِرِ الإصْطَبْلِ .

٣ — حَديثُ السَّائِسِ

وَكانَ السَّائِسُ يُرَبِّتُ أنْفَهُ مُتَوَدِّدًا (مُتَحَبِّبًا) إلَيْهِ ، وَيُهَيِّئُ لَهُ — مِنْ أشْتاتِ الْقَشِّ (مُتَفَرِّقاتِهِ) فِراشًا وَثِيرًا (لَيِّنًا) مُرِيحًا، وَيَقُولُ لَهُ مُداعِبًا (مُمازِحًا):

« ما أظُنُّكَ يا أبا زِيادٍ — وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (جاوَزْتَ السِّنَّ الْمَأْلُوفَةَ) — بِقادِرٍ عَلَى أداءِ عَمَلٍ ، جَلَّ أو صَغُرَ !

وَلَقَدْ كُنْتَ عَلى وَشْكِ أنْ تَهْلِكَ سَغَبًا (تَمُوتَ جُوعًا) ، بَعْدَ أنْ بَلَغْتَ أرْذَلَ الْعُمُرِ ؛ فَما أسْعَدَنِي بِخِدْمَةِ أمْثالِكَ مِنَ الضُّعَفاءِ ! »

فَسُرِرْنا جَمِيعًا مِنْ هٰذا الشُّعُورِ النَّبِيلِ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « شَفِيقٌ » حَدِيثَهُ ، وَهُوَ يَجُولُ فِي الإصْطَبْلِ قائِلًا :

« ما أسْعَدَ حَظَّكَ — يا أبا زِيادٍ — إذِ اهْتَدَيْتَ إلى حَظِيرَتِنا . فَإنَّها — لَوْ تَعْلَمُ — الْمَلاذُ (الْمَلْجَأُ) الْأمِينُ لِأمْثالِكَ مِنَ الْعَجَزَةِ فِي هٰذا الْبَلَدِ ، حَيْثُ يُسْمَحُ لَكَ بِالْبَقاءِ فِي الْحَظِيرَةِ ، دُونَ أنْ تُؤَدِّيَ عَمَلًا مَّا . فَالْبَثْ (فَابْقَ وامْكُثْ) — إنْ شِئْتَ — فِي هٰذا الْمَرْبِطِ إلى الصَّباحِ . »

وَما أدْرِي كَيْفَ عَرَفَ أنَّ هٰذا الضَّيْفَ يُدْعَى « أبا زِيادٍ » فَقَدْ ظَهَرَ لِي — فِيما بَعْدُ — أنَّ هٰذِهِ كانَتْ كُنْيَتَهُ الَّتِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ ، قَبْلَ أنْ يَدْعُوَهُ بِها سائِسُنا الذَّكِيُّ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّائِسُ كَلامَهُ مُلْتَفِتًا إلَيَّ قائِلًا : « ما أظُنُّكِ — يا أُمَّ سَوادَةَ — وَصَواحِبَكِ بِحاجَةٍ إلَيَّ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ . فَمُدْنَ (ارْجِعْنَ) إلى

نَوْمِكُنَّ — مَرَّةً أُخْرَى — وَتَمَتَّعْنَ بِرُقادِكُنَّ الْهَنِيءِ وَأَحْلامِكُنَّ السَّعِيدَةِ ، فَإِنَّ عَلَيْكُنَّ فِي صَباحِ الْغَدِ أَعْمالًا جِساماً (عَظِيمَةً خَطِيرَةَ الشَّأْنِ) .

٤ — سُهادُ « قَسامَةَ »

ثُمَّ صَعِدَ السّائِسُ دَرجاتِ السُّلَّمِ ، وَهَدَأَتِ الْجَلَبَةُ (سَكَنَتِ الضَّجَّةُ) بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَنامَ كُلُّ مَنْ فِي الْإِصْطَبْلِ . وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْ صَوْتِ رِفاقِ الدَّوابِّ ، غَيْرُ شَخِيرِها الْمُنْبَعِثِ مِنْ مَرابِطِها الدّانِيَةِ (الْقَرِيبَةِ) والنّائِيَةِ (الْبَعِيدَةِ) . أَمّا أَنا فَحالَفَنِيَ السُّهادُ (صاحَبَنِيَ السَّهَرُ) . وَأَرِقْتُ (ذَهَبَ نَوْمِي) ، فَلَمْ يَزُرِ الْكَرَى (النَّوْمُ) جَفْنَيَّ طُولَ اللَّيْلِ . وَبَقِيتُ جاثِمَةً (لَزِمْتُ مَكانِي فَلَمْ أَتْرُكْهُ) ساعَةً بَعْدَ أُخْرَى ، مُحاوِلَةً أَنْ أَتَعَرَّفَ : مِنْ أَيِّ مَكانٍ قَدِمَ هٰذا الزّائِرُ الْغَرِيبُ ؟ وَفِي أَيِّ مَوْطِنٍ وُلِدَ وَعاشَ ؟ وَعِنْدَ أَيِّ الْأَناسِيِّ (النّاسِ) الْغِلاظِ الْأَكْبادِ (الْقُساةِ الْقُلُوبِ) كانَ ؟ وَكَيْفَ طاوَعَتْهُمْ قُلُوبُهُمُ الْقاسِيَةُ عَلَى طَرْدِ هٰذا الْمِسْكِينِ التّاعِسِ إِلَى الْعَراءِ (الْخَلاءِ) ، والضَّنِّ (الْبُخْلِ) عَلَيْهِ بِالْقُوتِ وَالْمَأْوَى ، وَتَعْرِيضِهِ لِلْمَوْتِ — جُوعاً وَبَرْداً — فِي مِثْلِ هٰذا الشِّتاءِ الْقارِسِ (الشَّدِيدِ الْبَرْدِ) ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَرْذَلَ الْعُمُرِ .

٥ — ذِكْرَيات

لَقَدْ ذَكَرْتُ — حِينَ رَأَيْتُ هٰذا التّاعِسَ — ما لَقِيتُهُ — فِي سالِفِ أَيّامِي — مِنَ الْمُعامَلَةِ السَّيِّئَةِ . فَقَدِ ابْتُلِيتُ — فِي مُقْتَبَلِ شَبابِي — بِزارِعٍ شَرِسٍ غَضُوبٍ عَبُوسٍ ، وَكُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ الرّابِعَةَ مِنْ عُمُرِي — فِيما أَذْكُرُ — وَهِيَ السِّنُّ الَّتِي بَدَأْتُ عَمَلِي فِيها . وَكانَ يَشْتُمُنا كُلَّما أَبْصَرَنا ، وَيَرْكُلُنا (يَرْفُسُنا) بِرِجْلِهِ كُلَّما لَقِيَنا . وَما أَذْكُرُ ، أَنَّنِي رَأَيْتُهُ — فِيما رَأَيْتُهُ — مَسْرُوراً قَطُّ . فَقَدْ كانَ لِسُوءِ حَظِّهِ وَحَظِّنا مَغْلُوباً عَلَى أَعْصابِهِ (سَرِيعَ الْهِياجِ) .

٦ — فى المحراث

وَلَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى الْحَقْلِ — حِينَئِذٍ — أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَأَنا فِي تِلْكَ السِّنِّ ، وَإِلَى جانِبِي زَمِيلٌ مِنْ عِتاقِ الْخَيْلِ (مِنَ الْأَفْراسِ الْكَرِيمَةِ) اسْمُهُ « دَهْمانُ » : قُوَّتُهُ ضِعْفُ قُوَّتِي ، لِأَنَّ عُمُرَهُ ضِعْفُ عُمُرِي . وَقَدْ مَرَنَ هٰذا الْحِصانُ عَلَى حَرْثِ الْأَرْضِ زَمَناً طَوِيلًا . وَلَقَدْ حاوَلْتُ إِمْكانِي (بَذَلْتُ جُهْدِي) حَتَّى

لا أُتَّهَمَ بالتَّقصيرِ . وَلَسْتُ أَنْسَى نَصِيحَةَ أُمِّيَ الَّتِي أَفْضَتْ بِهاَ إِلَيَّ — فِى سِنِّ الطُّفُولَةِ — فَقالَتْ : « إنَّنا — مَعْشَرَ الدَّوَابِّ — جَدِيراتٌ أَنْ نَبْذُلَ لِلْعَمَلِ جُهْدَنا كُلَّهُ . لِأَنَّ صاحِبَنَا : رَبَّ هٰذِهِ الضَّيْعَةِ خَلِيقٌ (جَدِيرٌ) بِأَنْ نَفْنَى فِى الْإِخْلاصِ لَهُ ، فَلا نُقَصِّرَ فِى خِدْمَتِهِ . فَهُوَ خَيِّرُ الطَّبْعِ ، يَفِيضُ قَلْبُهُ حَنانًا وَرَحْمَةً ، وَلا يَضَنُّ عَلَيْنَا بِشَىْءٍ فِى سَبِيلِ إِسْعادِنا وَالتَّرْفِيهِ (التَّخْفِيفِ) عَنْ نُفُوسِنا » .

وَقَدْ عَمِلْتُ ، بِنَصِيحَتِها فَحاوَلْتُ جَهْدِى إِرْضاءَ حارِثِ الْحَقْلِ ، وَلٰكِنَّنِى — عَلَى ما بَذَلْتُ — لَمْ أَظْفَرْ بِإِرْضائِهِ . فَدَبَّ الْيَأْسُ إِلى قَلْبِى ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ كُلَّ مُحاوَلَةٍ لِلتَّحَبُّبِ إِلَيْهِ وَاسْتِجْلابِ مَوَدَّتِهِ إِنَّما هِىَ مُحاوَلَةٌ غَيْرُ مُجْدِيَةٍ . فَلَمَّا وَقَرَ (أَثَّرَ) ذٰلِكَ فِى نَفْسِى ، واسْتَقَرَّ فِى خَلَدِى (قَلْبِى) ، صَعُبَ عَلَىَّ الْعَمَلُ ، واسْتَوْلَى عَلَىَّ الضجرُ والْمَلَلُ .

آهِ — يا عَزِيزِى — كَمْ كُنْتُ مُتْعَبَةً مَجْهُودَةً وَكَمْ أَضْنانِى الذَّهابُ صاعِدَةً هابِطَةً ، فِى ذٰلِكَ الْحَقْلِ الْواسِعِ ! وَفِى أَصِيلِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، خارَتْ (ضَعُفَتْ) قُوَاىَ وَكِدْتُ أَسْقُطُ مِنْ فَرْطِ الْإِعْياءِ (شِدَّةِ التَّعَبِ) . فَهَمَمْتُ أَنْ أَقِفَ عَنْ مُواصَلَةِ الْعَمَلِ ، وَأَكُفَّ (أَمْتَنِعَ) عَنِ الْحَرَكَةِ .

٧ — حديث الزَّميل

وَكَأَنَّما أَحَسَّ زَمِيلِىَ الْهَرِمُ ما يُساوِرُ (ما يُغالِبُ) نَفْسِى مِنَ الْأَلَمِ ، فَقالَ لِى : « أَبْشِرِى — أَيَّتُها الْفَتاةُ النَّشِيطَةُ الذَّكِيَّةُ — فَقَدْ أَشْرَفَ النَّهارُ عَلَى نِهايَتِهِ — أَوْ كادَ — وَتَراءَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ خَلْفَ هٰذِهِ التِّلالِ وَالْآكامِ . وَلَعَلَّنا لا نَحْرُثُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَّا أُخْدُودًا أَوْ أُخْدُودَيْنِ فَقَطْ ، ثُمَّ نَعُودُ إِلى حَظِيرَتِنا مَسْرُورَيْنِ . » فَاسْتَمْدَدْتُ — حِينَئِذٍ — شَيْئًا مِنَ النَّشاطِ ، وَجَذَبْتُ الْمِحْراثَ بِقُوَّةٍ ، ثُمَّ قُلْتُ لِدَهْمانَ : « وما هُوَ الْأُخْدُودُ ؟ » فَقالَ لِى: « بَيْنَ هٰذِهِ النُّتُوءاتِ (رُءُوسِ الْأَخادِيدِ) — الْبادِيَةِ أَمامَكِ — تَرَيْنَ الْأَخادِيدَ ، وَهِىَ مِنْ عَمَلِ الْمِحْراثِ » .

فَقُلْتُ لَهُ : « وَكَيْفَ يَعْمَلُها الْمِحْراثُ ؟ » فَقالَ : « إِنَّ هٰذا الْمِحْراثَ الَّذِى نَجُرُّهُ ، فِى أَسْفَلِهِ مُدْيَةٌ (سِكِّينَةٌ) صُلْبَةٌ كَبِيرَةُ الْحَجْمِ ، فَهِىَ تَشُقُّ الثَّرَى (الْأَرْضَ) ، وَتَقْلِبُ تُرابَ الْحَقْلِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ (تَجْعَلُ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ) ، كُلَّما مَرَّ بِها الْمِحْراثُ الَّذِى نَجُرُّهُ .

فَقُلْتُ لَهُ : « لَعَلَّهُمْ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ أَنْ يُذْهِبُوا ما بَقِىَ مِنَ الْحَشائِشِ عَلَى

ظَهْرِ الأَرْضِ إِلَى جَوْفِها . » فقال: « نَعَمْ ». قُلْتُ: « وأَىُّ فائِدَةٍ لَهُمْ مِنْ هٰذا ؟ » .
فَقالَ : « لِأَنَّ الأَرْضَ لا تَصْلُحُ لِلزَّرْعِ إِلّا إِذا قُلِبَ عالِيها إِلَى أَسْفَل . ومَتى
تَمَّ لَنا ذٰلِكَ فَإِنَّنا – حِينَئِذٍ – نَجُرُّ آلَةً أُخْرَى تُسَمَّى الْمِسْلَفَةَ وَهِيَ الَّتِى
تُسَلَّفُ بِها أَرْضُ الْحَقْلِ (تُسَوَّى) لِتُغَطِّىَ ما يَبْذُرُهُ فِيها الزّارِعُ مِنَ
الْحُبُوبِ » . فَقُلْتُ لَهُ : « وماذا يُجْدِيهِم (ماذا يُفِيدُهُمْ) هٰذا العَناءُ
(التَّعَبُ) ؟ » فقالَ : « لا سَبِيلَ إِلَى الرّاحَةِ بِغَيْرِ التَّعَبِ ، وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ
الأَهْوالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغائِبَ . ولا سَبِيلَ لِتَهْيِئَةِ الأَرْضِ لِلزِّراعَةِ إِلّا بَعْدَ
حَرْثِها وتَسْلِيفِها (تَسْوِيَتِها) وسَقْيِها ، وما إِلَى ذٰلِكَ .

يَظْهَرُ لِى أَنَّكِ لا تَعْرِفِينَ – يا قَسامَةُ – مِنَ الْمَعْلُوماتِ الأَوَّلِيَّةِ ،
وَبَسائِطِ الْمَعارِفِ الضَّرُورِيَّةِ ما يُناسِبُ سِنَّكِ ؟ » فَقُلْتُ لَهُ – فِى
اسْتِسْلامٍ – وَقَدْ أَعْجَبَنِى حُسْنُ فَهْمِهِ ، وَصِدْقُ حُكْمِهِ عَلَى الأُمُورِ :
« صَدَقْتَ – يا دَهْمانُ – فَإِنِّى عَلَى الحَقِيقَةِ لا أَزالُ جاهِلَةً مُتَخَلِّفَةً (مُتَأَخِّرَةً)
فَزِدْنِى عِلْماً أَزْدَدْ لَكَ شُكْراً . »

فَأَجابَنِى مُتَلَطِّفاً : « لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نَفْسِى مِنْ تَحْقِيقِ ما تَطْلُبِينَ
يا قَسامَةُ – ولٰكِنْ لَمْ يَبْقَ لَدَيْنا مِنَ النَّهارِ إِلّا دَقائِقُ يَسِيرَةٌ ، وَمَتَى فَرَغْنا

مِنْ حَرْثِ هٰذا الأُخْدُودِ رَجَعْنا إِلَى الدّارِ » .

٨ – طائفة من المعلومات

فَصَرَخْتُ مُتَعَجِّبَةً : « أَهٰكَذا انْتَهَيْنا سَرِيعاً ! أَلَمْ تَقُلْ لِى إِنَّنا سَنَحْرُثُ
أُخْدُوداً آخَرَ ؟ » فَقالَ : « لَقَدْ فَرَغْنا الآنَ مِنْ حَرْثِهِ – عَلَى طُولِهِ – دُونَ
أَنْ تَشْعُرِى بِما بَذَلْتِهِ مِنْ جُهْدٍ . وَمَرَّ الْوَقْتُ سَرِيعاً فَلَمْ تَفْطُنِى (لَمْ تَنْتَبِهِى)
إِلَى انْقِضاءِ الْيَوْمِ » .

* * *

ثُمَّ قَصَّ عَلَىَّ « دَهْمانُ » طَرائِفَ مِنَ الْمَعارِفِ النّافِعَةِ ، فَأَخْبَرَنِى أَنَّ
ما نَطْعَمُهُ مِنَ اللَّذائِذِ عِنْدَنا كالشَّعِيرِ والْفُولِ والْبِرْسِيمِ إِنَّما يَخْرُجُ
مِنَ الأَرْضِ .

ثُمَّ قالَ لِى فِيما قالَ : « ولَنْ تُنْبِتَ لَنا الأَرْضُ هٰذِهِ الْمَآكِلَ إِلّا بَعْدَ أَنْ
نَبْذُلَ جُهْدَنا فِى حَرْثِها وتَزْحِيفِها ، وَيَبْذُلَ الزّارِعُ جُهْدَهُ فِى غَرْسِها وَسَقْيِها ،
لِأَنَّ فِيها أَيْضاً أَكْثَرَ غِذائِهِ وَغِذاءِ بَنِى جِنْسِهِ . فَإِذا قَصَّرَ أَحَدٌ مِنّا فِى شَىْءٍ من
هٰذا كُلِّهِ لَمْ نَظْفَرْ بِما نَأْكُلُهُ غَيْرَ الْحَشائِشِ ، وَلَمْ يَظْفَرْ هُوَ بِنَباتِ الأَرْضِ » .

ثُمَّ قالَ لى وَنَحْنُ عائِدانِ إلَى الْحَظِيرَةِ : « فَإذا سَأَلْتَنِي رَأْيِى ، فإنِّى لا أَكْتُمُكَ أَنِّى أُفَضِّلُ – أَلْفَ مَرَّةٍ – أَنْ أَعْمَلَ وأَكْدَحَ (أُجاهِدَ) – طُولَ يَوْمِى – لِأَوْفُرَ زادِى (أُكَثِّرَ قُوتِى) ، عَلَى أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِلْكَسَلِ ، وَأَخْلُدَ (أَسْكُنَ) لِلرَّاحَةِ ، ثُمَّ أَهْلِكَ جُوعاً » .

٩ — ثَمَرَةُ المَعْرِفَةِ

وَلَمَّا بَلَغْنا الْحَظِيرَةَ لَمْ نَجِدْ فُرْصَةً لِإتْمامِ حَدِيثِنا لَيْلًا ، لِأَنَّ مَرْبَطى لَمْ يَكُنْ قَرِيباً مِنْ مَرْبَطِ زَمِيلِى . عَلى أَنِّى – بَعْدَ أَنْ خَلَوْتُ إلى نَفْسِى – أَنْعَمْتُ النَّظَرَ ، وَأَطَلْتُ الفِكْرَ ، فِيما أَفْضَى بِهِ إلَىَّ صاحِبِى مِنْ حَدِيثٍ . واعْتَزَمْتُ – مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ – أَنْ أُضاعِفَ مِنْ جُهْدِى فِى سَبِيلِ الْعَمَلِ ، غَيْرَ مُتَبَرِّمَةٍ بِما أَلْقاهُ مِنْ عَناءٍ وجُهْدٍ . وَسَواءٌ عَلَىَّ أَقَدَرَ لِىَ الْحارِثُ ما أَبْذُلُ مِنْ هِمَّةٍ ونَشاطٍ أَمْ لَمْ يَقْدُرْهُ .

وَأَرادَ اللهُ أَنْ يُجْزِلَ (يُعْظِمَ) مُكافَأَتِى عَلى حُسْنِ نِيَّتِى ، فَيَسَّرَ لِى – فِى غَدِى (فِى الْيَوْمِ التَّالِى) – حارِثاً آخَرَ ، كانَ عَلى الْعَكْسِ مِنْ سابِقِهِ ، آيَةً فِى الْبَشاشَةِ واللُّطْفِ . فَكانَ يُلَقِّبُنِى بِأَحَبِّ الأَلْقابِ إلى نَفْسِى . فَسَهَّلَ

عَلَىَّ بِذٰلِكَ كُلَّ صَعْبٍ ، وَيَسَّرَ لِى بِلُطْفِهِ كُلَّ عَسِيرٍ .

وكانَ صَدِيقِى « دَهْمانُ » راوِيَةً بارِعاً ، وَقاصًّا مُبْدِعاً فاتِنَ الْحَدِيثِ . فَقَصَّ عَلَىَّ – حِينَئِذٍ – مِنْ أَنْباءِ الدَّوابِّ كُلَّ مُغْرِبٍ مُعْجِبٍ .

وَما أَنْسَ مِنْ بَدائِعِهِ لا أَنْسَ ما رَواهُ لِى مِنْ طَرائِفِ صاحِبِهِ : « أَبِى تَوْلَبٍ » الَّتِى قَصَّها – قَبْلَ مَوْتِهِ – عَلى صَدِيقِى « دَهْمانَ » لَقَدْ أَحْبَبْتُ الْحَمِيرَ – مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ – وعَرَفْتُ لَهُمْ فَضْلَ ما تَمَيَّزُوا بِهِ عَلى دَوابِّ الأَرْضِ قاطِبَةً (جَمِيعاً) ، وما انْفَرَدُوا بِهِ مِنْ مَزايا باهِرَةٍ ، وخِلالٍ (صِفاتٍ) نادِرَةٍ .

١٠ — ضَوْءُ الصَّباحِ

وَهٰكَذا قَضَيْتُ لَيْلِى مُسْتَرْسِلَةً فِى أَمْثالِ هٰذِهِ الذِّكْرَياتِ ، حَتَّى رَأَيْتُ السَّائِسَ هابِطاً إلَيْنا مِنْ غُرْفَتِهِ . وكانَ ضَوْءُ الصَّباحِ الْباكِرِ ، يَنْفُذُ إلى حَظِيرَتِنا فَيُوقِظُ النِّيامَ ، فَهَلِ اسْتَيْقَظَ ضَيْفُنا « أَبُو زِيادٍ » ؟ أَلا لَيْتَ شِعْرِى : كَيْفَ حالُكَ يا ابْنَ عَمٍّ ؟ كَيْفَ قَضَيْتَ لَيْلَتَكَ ؟ أَتُراكَ اسْتَرَحْتَ إلى أَحْلامِكَ السَّعِيدَةِ ؟ وَأَىُّ الأَفْكارِ السَّارَّةِ – أَوِ الْحَزِينَةِ – تَطُوفُ بِرَأْسِكَ الآنَ ؟

الفصل الثالث

١ — الطِّفلة المُحْسِنَةُ

لَقَدْ رَوَيْتُ لكَ — أيُّها الصَّديقُ الْعَزيزُ — طَرَفًا يَسيرًا مِمَّا مَرَّ بِي فِي حَياتِي الماضِيَةِ . وإنِّي لقاصَّةٌ عَلَيْكَ طائِفَةً مِنْ أخْبارِيَ الرَّاهِنَةِ لِأَصِلَ الماضِيَ بِالحاضِرِ :

فاعْلَمْ — أيُّها الصَّبِيُّ البارِعُ النَّشيطُ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ ، وَسَلِمْتَ مِنْ كلِّ ضَيْرٍ : أنَّنِي قَدْ أصْبَحْتُ مُرْتاحَةً فِي هٰذِهِ الأيَّامِ مِنْ كلِّ عَناءٍ . فَلا يَجْهَدُنِي أحَدٌ بِعَمَلٍ مُضْنٍ (مُمْرِضٍ) لِأَنَّنِي مَعْنِيَّةٌ بِتَرْبِيَةِ وَلَدِيَ الصَّغيرِ : « زادِ الرَّكْبِ » الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . وقَدْ قالَتْ عَنْهُ « سُعادُ » بِنْتُ صاحِبِ الدَّسْكَرَةِ (بِنْتُ صاحِبِ الأرْضِ الَّتِي نَعْمَلُ فِيها) : إنَّهُ يُشْبِهُنِي كَثيرًا ، وفِي أسْفَلِ وَجْهِهِ مِثْلُ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْبَيْضاءِ الَّتِي تَمَيَّزْتُ بِها . وإنَّ « سُعادَ » لا تَخافُنِي أبَدًا . وإنْ كانَتْ صَغيرَةَ الْجِسْمِ جِدًّا ، وَأنا كَبيرَةُ الْحَجْمِ جِدًّا . وهِيَ تَرانِي أُقْبِلُ عَلَيْها كُلَّما جاءَتْ إلى الدَّسْكَرَةِ (الْمَزْرَعَةِ) .

ولا عَجَبَ فِي ذٰلِكَ فَإنَّ يَدَيْها لا تَخْلُوانِ مِنْ حُفْنَةٍ (مِقْدارِ مِلْءِ كَفَّيْها) مِنَ الشَّعيرِ ، أوْ كِسْرَةٍ مِنَ الْخُبْزِ ، أوْ قَليلٍ مِنَ الْمِلْحِ ، أوْ حُزْمَةٍ مِنَ الدَّريسِ ، وما إلَى ذٰلِكَ مِنْ ألوانِ الأطْعِمَةِ الَّتِي أُحِبُّها . وهِيَ تُكْثِرُ مِنَ التَّوَدُّدِ (التَّحَبُّبِ) إلَيَّ .

٢ — بَيْنَ « قَسامَةَ » و « زادِ الرَّكْبِ »

ها هُوَ ذا « شَفيقٌ » قادِمًا لِيُنَظِّفَنِي ، ويَحُسَّنِي (يَنْفُضَ التُّرابَ عَنِّي) قَبْلَ أنْ أذْهَبَ إلى الْمَرْعَى . إنَّهُ يَعْلَمُ كَمْ أبْتَهِجُ حِينَ يَمْشُطُ شَعْرِي كلَّ صَباحٍ ، سَواءٌ فِي أوْقاتِ الرَّاحَةِ والْعَمَلِ . وإنَّ مُهْرِيَ الصَّغيرَ لَتَمْتَلِئُ نَفْسُهُ مَرَحًا وسُرُورًا كُلَّما خَرَجَ مَعِيَ إلى الْمَرْعَى . لَقَدْ نَما سَريعًا فِي زَمَنٍ قَصيرٍ ، وطالَتْ أقْدامُهُ بِالْقِياسِ إلى جِسْمِهِ . وهُوَ فِي جِنِّ نَشاطِهِ (عُنْفُوانِهِ وقُوَّتِهِ) ، فَلا يُطيقُ أنْ يُحْبَسَ فِي مَرْبَطِهِ دُونَ أنْ يَجْرِيَ فِي الْمَرْعَى كَما يَشاءُ .

وقَدْ سَألَنِي ذاتَ يَوْمٍ : « لِماذا لا يَتْرُكُونَنا خارِجَ الإصْطَبْلِ — لَيْلَ نَهارَ — يا أُمَّاهُ ؟ » فَأجَبْتُهُ : « لِأنَّ الْبَرْدَ — فِي هٰذا الْفَصْلِ — قارِسٌ (شَديدٌ) . ومَتَى انْصَرَمَ (انْتَهَى) الْفَصْلُ ، فَإنَّنا نَعيشُ خارِجَ الْحَظيرَةِ لَيْلَ نَهارَ » .

ما أعجبَ أمْرَ هٰذا الطفْلِ ، وما أشَدَّ وَلُوعَهُ وَشَغَفَهُ بالفَضاءِ والحرَكَةِ .
لقَدْ سَمِعَ صَوْتَ السّائِسِ — وهُوَ يَفْتَحُ بابَ الحَظيرَةِ — فاسْتَوْلَى عليْهِ المَرَحُ ، وتَملَّكَتْهُ البَهْجَةُ ، وظَلَّ يَقْفِزُ ويَجْرِى مَسْرُورًا ، ويَرْفُسُ أرْجُلَهُ — بَعْضَها بِبَعْضٍ — مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ .

٣ — أبُو زِيادٍ

ثُمَّ وَقَفَ فَجْأَةً — مِقْدارَ لَحْظَةٍ — وَنَظَرَ وَراءَهُ مَذْهُوشًا . فالْتَفَتُّ فَرَأَيْتُ « شَفِيقًا » يُخْرِجُ مِنَ الإصْطَبْلِ ذٰلِكَ الحِمارَ المِسْكِينَ الَّذِى شُغِلْتُ بِأمْرِهِ طُولَ لَيْلَتِى . وما كادَ وَلَدِى يَراهُ حَتّى سأَلَنِى :
« ما اسْمُ هٰذِهِ الدّابَّةِ العَجُوزِ ؟ وَهَلْ يُصِيبُنا مِنْها ضَرَرٌ ؟ »
فَقُلْتُ لَهُ مُبْتَسِمَةً : « كَلَّا ، أيُّها الأبْلَهُ العَزِيزُ . إنَّهُ ابْنُ عَمٍّ لَنا ، وقَدْ لَقِىَ مِنْ سُوءِ المُعامَلَةِ شَيْئًا كَثِيرًا ، كَما يَبْدُو (كَما يَظْهَرُ) مِنْ هُزالِ جِسْمِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ . »

٤ — حَيْرَةُ الضَّيْفِ

ثُمَّ مَشَيْتُ مُتَّجِهَةً إلَى الضَّيْفِ حَتّى دانَيْتُهُ (قارَبْتُهُ) ، فَقُلْتُ لَهُ فِى تَلَطُّفٍ

وَتَوَدُّدٍ : « سُعِدَ صَباحُكَ يا « أبا زِيادٍ » ! لَعَلَّ صِحَّتَكَ اليَوْمَ أحْسَنُ مِنْها أمْسِ ! » وَكَأنَّ هٰذا المَخْلُوقَ التّاعِسَ لَمْ يَألَفْ مِثْلَ هٰذا التَّوَدُّدِ وَتِلْكَ المُلاطَفَةِ ، فَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يُجِيبُ ، وَلا ماذا يَقُولُ . فاسْتَأْنَفْتُ قائِلَةً :
« أخْشَى أنْ تَكُونَ قَدْ لَقِيتَ مِنَ المَتاعِبِ ما أعْجَزَكَ وَناءَ بِهِ احْتِمالُكَ (ما لَمْ تُطِقْ حَمْلَهُ) ! ألا تُحِبُّ أنْ تَنْتَحِىَ (تَقْصِدَ) بِنا هٰذِهِ النّاحِيَةَ المُشْمِسَةَ ، لِنَتَحَدَّثَ مَعًا ، قَلِيلًا مِنَ الوَقْتِ » .
فَتَوَقَّفَ لَحَظاتٍ قَلِيلَةً يُفَكِّرُ ، وَقَدْ بَدَتْ (ظَهَرَتْ) الحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِهِ ، كَأنَّما كانَ يَتَرَدَّدُ فِى تَصْدِيقِ ما سَمِعَ ، وَيُرِيدُ أنْ يَتَثَبَّتَ مِنْ صِدْقِ مَوَدَّتِى ، وَيَسْتَوْثِقَ مِمّا أقُولُ . فَأجابَنِى عَلَى اسْتِحْياءٍ (مُسْتَحِيًا) :
« لَكِ ما تُرِيدِينَ — يا سَيِّدَتِى — فَما أرَى بَأْسًا فِيما تَقْتَرِحِينَ ! »

٥ — جَمالُ الطَّبِيعَةِ

فَقُلْتُ لَهُ : « هَلُمَّ إلَىَّ (أقْبِلْ عَلَىَّ) ، فَإنَّ الجَوَّ صَحْوٌ (إنَّ سَماءَهُ صافِيَةٌ لا غَيْمَ فِيها) . وَلا شَكَّ فِى أنَّ مِثْلَ هٰذا الصَّباحِ السَّعِيدِ كَفِيلٌ بِأنْ يُدْخِلَ الهَناءَ وَالبَهْجَةَ فِى قَلْبِ أشَدِّ الكائِناتِ حُزْنًا وَتَعاسَةً . ألا تُصْغِى إلَى

الطُّيورِ ، وَهِيَ فَوْقَ الأَغْصانِ ، وَفِي أَعْلَى السُّورِ ؟ اسْتَمِعْ إِلَى صَوْتِ الْقُنْبُرَةِ فِي السَّماءِ . وانظُرْ إِلَى الأَوْراقِ الْمُخْضَرَّةِ ، وَهِيَ تَرْفَعُ رُءوسَها ، لِتُشْرِفَ عَلَى الْعالَمِ مِنْ أَكْمامِها الَّتِي تَفَتَّحَتْ . وَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الأَزْهارَ الباسِمَةَ ، وَإِلَى جانِبِها الْوُرُودَ وَهِيَ تَفْتَحُ أَعْيُنَها مُبْتَهِجَةً لِتُحَيِّيَ الشَّمْسَ » .

٦ – سِنُّ الفِطامِ

فَلَمْ يُحِرْ (لَمْ يَرُدَّ) جَوابًا، بَلْ قَفَزَ بِجِوارِي . وَكُنْتُ واقِفَةً فِي زاوِيَةٍ قَصِيَّةٍ (بَعِيدَةٍ) فِي الْحَقْلِ، حَيْثُ الْحَشائِشُ اللَّذِيذَةُ قَدْ بَلَّلَها النَّدَى . فَقُلْتُ لَهُ : « الآنَ نَبْدَأُ فَطُورَنا ، ثُمَّ نَرْقُدُ شَيْئًا (بَعْضَ الْوَقْتِ) رَيْثَما يَمْتَعُ (يَنْعَمُ) وَلَدِي « زادُ الرَّكْبِ » بِالْجَرْيِ فِي هٰذا الْمَرْعَى الْخَصِيبِ ! لَقَدْ غَذَوْتُهُ بِلَبانِي قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ بِهِ مِنَ الإِصْطَبْلِ » .

فَسَكَتَ « أَبُو زِيادٍ » . وَلَبِثْنا شَيْئًا (زَمَنًا قَلِيلًا) ، نَأْكُلُ فِي صَمْتٍ . وَهَمَمْتُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَى الْكَلامِ . وَلٰكِنَّهُ ابْتَدَرَنِي (أَسْرَعَ إِلَيَّ) قائِلًا : « كَيْفَ تُرْضِعِينَ هٰذا الْمُهْرَ ، وَهُوَ – فِيما يَبْدُو لِي – قَدْ جاوَزَ سِنَّ الرَّضاعِ ؟ كَمْ عُمْرُهُ الآنَ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « سِتَّةُ أَسابِيعَ فَقَطْ . وَيَظْهَرُ أَنَّهُ اسْتَمْرَأَ دَرِّي (اسْتَطابَ لَبَنِي) الدَّسِمَ (الْكَثِيرَ السَّمْنِ) ، فَقَدْ نَمّاهُ لَبَنِي وَأَسْمَنَهُ . وَلَنْ أَفْطِمَهُ قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ الشَّهْرَ الرّابِعَ مِنْ عُمْرِهِ عَلَى الأَقَلِّ » .

٧ – الحَوافِرُ والأَظْلافُ

فَقالَ : « وَلِماذا ؟ » فَقُلْتُ : « لا بُدَّ أَنْ أُرْضِعَهُ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِأَسْنانِهِ اللَّبَنِيَّةِ أَسْنانَهُ الْحَقِيقِيَّةَ ، الَّتِي يَأْكُلُ بِها الطَّعامَ الصُّلْبَ وَيَمْضُغُهُ . وَلَنْ يَتِمَّ لَهُ ذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ تِلْكَ الْمُدَّةُ . ما أَعْجَبَ سُؤالَكَ ، يا أَبا زِيادٍ ! لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُكَ عارِفًا تَفْصِيلَ هٰذا كُلِّهِ ، لِأَنَّكَ تُنْسَبُ إِلَى أُسْرَتِنا » .

فَقالَ مُتَعَجِّبًا مِمّا سَمِعَ : « أَكَذٰلِكِ تَعْتَقِدِينَ ؟ أَنْتِ فَرَسٌ ! أَلَيْسَ كَذٰلِكِ ؟ » فَقُلْتُ لَهُ : « صَدَقْتَ . وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ ؟ إِنَّ الْفَرَسَ والْحِمارَ يَنْتَسِبانِ إِلَى أُسْرَةٍ واحِدَةٍ . وَحَسْبُكَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ ما حَدَّثْتُكَ بِهِ : أَنَّنا جَمِيعًا مِنْ ذَواتِ الْحافِرِ (الظِّلْفِ غَيْرِ الْمَشْقُوقِ) . أَلا تَرَى أَقْدامَنا لَيْسَ فِيها أَصابِعُ . ولا كَذٰلِكَ صَواحِبُنا ذَواتُ الأَظْلافِ ، أَعْنِي : ذَواتِ الْحَوافِرِ الْمَشْقُوقَةِ : كالنَّعْجَةِ والْبَقَرَةِ والْغَزالِ والْمِعْزَى

والغَنَمِ والجامُوسِ .

إنَّ الحافِرَ لأبناءِ أُسرَتِنا هُو بِمَنزِلَةِ الظِّلْفِ الّذى تمتازُ بهِ أُسرَةُ البَقَرَةِ والشاةِ والظَّبْى وشِبْهِها . والحافِرُ والظِّلْفُ كِلاهُما للدّابَّةِ بِمَنزِلَةِ القَدَمِ لِلإنسانِ . وهٰـذِهِ الدّوابُّ تَشرَكُنا فِى أكْلِ الحشائِشِ وتَختَلِفُ عَنَّا بِفَرْوَتِها .

أمَّا ذَواتُ الأخْفافِ كالجَمَلِ والنَّعامِ ، فَإنَّ حَوافِرَنا تَمْتازُ عَنْ أَخْفافِها بالصَّلابَةِ ، كَما تَمْتازُ ذَواتُ الأظْلافِ بِفَرْوَتِها عَنَّا وعَنْ غَيرِنا مِنْ ذَواتِ الأخْفافِ .

فَكَيْفَ جَهِلْتَ هٰذِهِ البَسائِطَ (المَعْلُوماتِ الأوَّلِيَّةَ) ، ولِماذا نَسِيتَها — يا أبا زيادٍ — وَهِىَ لا تَكادُ تَخْفَى عَلَى أحَدٍ ؟ »

٨ — أسْنانُ الدّوابِّ

وما كانَ أجْدَرَكَ أن تَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ أَسْنانِنا — مَعْشَرَ الخَيْلِ — فإنَّها تَتَبَدَّلُ فِى نَفْسِ الأوْقاتِ الَّتِى تَتَبَدَّلُ فيها أسْنانُكُمْ ، فِى زَمَنِ طُفُولَتِنا وَطُفُولَتِكُمْ عَلَى السَّواءِ » .

فَقالَ « أبو زيادٍ » ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ العَجَبُ (اسْتَولَت عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ) :

« أَكَذلِكَ نَحْنُ وأنتُمْ ؟ ما كُنْتُ لِأَعْلَمَ هٰذا مِنْ قَبْلُ . وَغايَةُ ما عَرَفْتُهُ : أنَّهُ كانَ لِى أرْبَعُ أسْنانٍ حِينَ كانَتْ سِنِّى خَمْسَةَ أيّامٍ ، ذٰلِكَ ما حَدَّثَتْنِى بِهِ أُمِّى ، وَلَولاها ما عَرَفْتُهُ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « ذٰلِكَ حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ : كانَتْ لَكَ أرْبَعُ أسْنانٍ — حِينَئِذٍ —

كَما كانَتْ لَنا جَميعاً . وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ إِلّا أَنْياباً أَعْني : أَسْناناً مُدَبَّبَةً ، لا تُفيدُ شَيْئاً ، وَلا تَصْلُحُ لِمَضْغِ الطَّعامِ . وَمَتى تَمَّ نَماؤُنا أَصْبَحَ لِكُلٍّ مِنّا سِتَّةُ أَضْراسٍ في آخِرِ فَكَّيْنا . وَهِيَ نافِعَةٌ لِلْقَضْمِ (لِتَكْسيرِ الطَّعامِ الْيابِسِ بِأَطْرافِها) ، كَما أَنَّها نافِعَةٌ لِلتَّقْطيعِ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ أَنْ نَأْكُلَ طَعامَنا ، إِذا لَمْ يَكُنْ لَنا تِلْكَ الْأَضْراسُ الْقَواطِعُ الَّتي تَراها في آخِرِ الْحَنَكِ ، وَبِغَيْرِها لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَطْحَنَ الطَّعامَ . »

٩ — حِوارُ الصَّديقَيْنِ

فَقالَ « أَبو زِيادٍ » وَهُوَ يَقْضَمُ الْحَشائِشَ (يُكَسِّرُها بِأَطْرافِ أَسْنانِهِ) :
« هٰذا حَقٌّ لا رَيْبَ (لا شَكَّ) فيهِ ! لَقَدْ مَرَّ بي ذٰلِكَ الْعَهْدُ . وَيَظْهَرُ لي أَنَّكِ تَعْلَمينَ كَثيراً مِنَ الْحَقائِقِ الْمُمْتِعَةِ . فَخَبِّريني — يا ابْنَةَ عَمٍّ — مَتى جِئْتِ إِلى هٰذِهِ الضَّيْعَةِ ؟ »

فَأَجَبْتُهُ وَقَدْ دَهِشْتُ مِنْ سَذاجَتِهِ : « لَقَدْ وُلِدْتُ فيها . فَخَبِّرْني — يا ابْنَ عَمٍّ — مِنْ أَيِّ مَكانٍ حَضَرْتَ ؟ »

فَأَجابَني ، وَهُوَ يَحُكُّ ظَهْرَهُ في أَحَدِ الْعَمَدِ الْمُثْبَتِ بِها سُورُ الْمَرْعَى :

« ذٰلِكَ ما لَمْ أَتَثَبَّتْ مِنْهُ . لَقَدْ مَرَرْتُ بِمَواطِنَ وَبُلْدانٍ كَثيرَةٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ — عَلَى التَّحْقيقِ — أَنْ أَذْكُرَ : في أَيِّ مَوْطِنٍ وُلِدْتُ !

وَلَسْتُ أَدْري مِنَ الْمَعارِفِ ما تَدْرينَ ، وَلا أَعْلَمُ مِنَ الْحَقائِقِ مِقْدارَ ما تَعْلَمينَ . وَلٰكِنّي — عَلَى ذٰلِكَ — أَعْرِفُ أَشْياءَ أُخَرَ ، ما أَظُنُّكِ تَعْرِفينَها ؟ فَقَدْ رَأَيْتُ — لِتَعاسَتي — كَثيراً مِنْ بِقاعِ الْأَرْضِ ؛ وَأَدْرَكْتُ — لِشَقاوَتي — كَثيراً مِنْ حَقائِقِ الْحَياةِ ، وَدِدْتُ لَوْ جَهِلْتُها أَوْ نَسيتُها .

١٠ — « أَبو تَوْلَبٍ »

إِنَّ النّاسَ يَصِفُونَني بِالْغَباوَةِ ، وَلَعَلَّني كَما يَصِفُونَ . وَلٰكِنَّني لا أَحْسَبُني قَدْ وُلِدْتُ أَبْلَهَ أَوْ غَبِيّاً . فَكَيْفَ تَحْكُمينَ يا ابْنَةَ عَمٍّ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « كَلّا ، بَلْ ظَلَموكَ يا « أَبا زِيادٍ » ، فَما أَنْتَ عَلَى التَّحْقيقِ بِأَبْلَهَ وَلا غَبِيٍّ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ جِنْسَكَ مَعْرُوفٌ — بَيْنَنا — بِالذَّكاءِ وَالصَّبْرِ عَلى احْتِمالِ الشَّدائِدِ ، مَوْصُوفٌ — عِنْدَنا — بِدَماثَةِ الْخُلُقِ (لِينِ الطَّبْعِ) وَنَقاءِ السَّريرَةِ (صَفاءِ السِّرِّ الَّذي يُضْمِرُهُ في نَفْسِهِ) . وَقَدْ حَدَّثَني أَحَدُ أَصْدِقائِيَ الْقُدَماءِ ، وَاسْمُهُ : « دَهْمانُ » بِذِكْرَياتٍ مُعْجِبَةٍ قَصَّها عَلَيْهِ أَحَدُ أَبْناءِ

أعمامِنا المُتَوَفَّيْنَ (المَيِّتِينَ) من الحَمير، يُكْنَى: «أبا تَوْلَب». وما أشُكُّ
في أنَّكَ لَوْ سَمِعْتَ قِصَّتَهُ وخَواطِرَهُ، لَأَيْقَنْتَ أنَّ هٰذا الحمارَ، كانَ أذْكَى دابَّةٍ
عُرِفَتْ في تاريخِنا — مَعْشَرَ الدَّوابِّ — الحافِلِ بالغَرائِبِ قَديمًا وحَديثًا. وما
أحْسَبُ أنَّ حِمارًا، كائنًا ما كانَ، قَدْ لَقِيَ — مِنْ مَصائبِ الدُّنْيا وأَحْداثِها —
مِثْلَ ما لَقِيَ هٰذا الحَيَوانُ العالِمُ الشَّقِيُّ.

١١ — «أُمُّ شَحَّاجٍ»

ولا أكْتُمُكَ أنِّي طالَما أبْصَرْتُ سائِسَنا «شَفيقًا» يُعْجَبُ بِأُمِّ شَحَّاجٍ
الَّتي في ضَيْعَتِنا، وطالَما قال عنها: «إنَّها أذْكَى دابَّةٍ رآها، وأفْطَنُ حيوانٍ
عرَفه. وهو يؤثِر ركوبَ هٰذهِ الأتانِ (الحِمارة) — لِوَداعَتِها وطَواعِيَتِها —
ويُفَضِّلُها عَلَى دَوابِّ الدَّسْكَرَةِ كُلِّها. وهِيَ في ضَيْعَتِنا مَوْفُورَةُ الرَّاحَةِ، فلا
تَرَى أحَدًا يُرْهِقُها (يُجْهِدها) بالأثقالِ. ولَيْسَ لَها مِنْ عَمَلٍ يَشْغَلُها إلَّا
مَرْكَبَةٌ صغيرةٌ تَجُرُّها، يَسْتَقِلُّها (يَرْكَبُها) أطفالُ صاحِبِ الضَّيْعَةِ حِينَ
يَذْهَبُونَ إلى المَدْرَسَةِ، وحِينَ يَعُودُونَ.»

١٢ — شكوى «أبي زياد»

فَقالَ «أبو زِيادٍ» مُتَرَوِّيًا (مُتَأنِّيًا مُفَكِّرًا): «إنَّ حَظَّها أسْعَدُ مِنْ

حَظِّي. ألا شَدَّ ما اخْتَلَفَ القِسْمُ (ما أبْعَدَ نَصيبَ هٰذا مِنْ ذاكَ). وما
أغْرَبَ تَوْزيعَ الحُظُوظِ: حينَ تُفَرِّقُ بالسَّعادَةِ قَوْمًا، وبالشَّقاءِ آخَرِينَ!
أما لَوْ عَلِمْتَ ما تَعَرَّضْتُ لهُ مِنْ كَوارِثَ (مَصائبَ) وأَحْداثٍ (أَحْوالٍ
وشُئُونٍ)، لَعَجِبْتَ مِنْ طُولِ تَجَلُّدِي واحْتِمالِي وصَبْرِي عَلَى المَكارِهِ،
واسْتَوْلَى عَلَيْكَ الدَّهَشُ مِمَّا كابَدْتُهُ (قاسَيْتُهُ) مِنَ الأهْوالِ والفَواجِعِ!»

فَقُلْتُ لَهُ: «مِسْكينٌ أنتَ يا «أبا زِيادٍ» العَزيزُ! ارْقُدْ هُنا، وقُصَّ عَلَيَّ
حدِيثَكَ العَجيبَ، دُونَ أنْ تَنْقُصَ منْهُ شَيْئًا. فَلَعَلَّكَ تَشْعُرُ بِبَعضِ الرَّاحةِ
والطُّمأنينَةِ، حينَ تُفْضِي إلَيَّ (تُخْبِرُني) بِذِكْرَياتِكَ وخَواطِرِكَ الحَزينَةِ.»

فَقالَ «أبو زِيادٍ»: «لَقَدْ شَوَّقْتَني — يا «أُمَّ» «سَوادَةَ» — إلى حديثِ
«أبي تَوْلَبٍ»: ذٰلِكَ الحِمارِ العالِمِ الذَّكيِّ. فَخَبِّرْني بِما قَصَّهُ عَلَيْكَ صاحِبُكَ:
«دَهْمانُ» مِنْ أخْبارِهِ، وإنِّي مُحَدِّثُكَ بأمْري، فيما بَعْدُ.»

فَقُلْتُ لَهُ، وقَدِ اشْتَدَّ شَغَفي لِسَماعِ قِصَّتِهِ:

«إنِّي قاصَّةٌ عَلَيْكَ ما تُريدُ مِنْ أنْبائِهِ المُعْجِبَةِ، بَعْدَ أنْ تُفْضِيَ إلَيَّ
بِدِخْلَتِكَ (تُخْبِرَني بِما تُخْفِيهِ في قَرارِ نفسِكَ)؛ فَإنِّي — لِسَماعِ قِصَّتِكَ —
لَعَلَى شَوْقٍ شَديدٍ.»

الفصل الرابع

قِصَّةُ أَبِي زِيادٍ

١ — ثلاثونَ عامًا

لَمْ يَكَدْ « أَبُو زِيادٍ » يَسْتَسْلِمُ لِلرَّاحَةِ — فَوْقَ الْحَشائِشِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِياجِ الْحَقْلِ (سُورِهِ) — حَتَّى الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِي نَظَراتٍ فاحِصَةً ذاتَ مَعانٍ لا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَراها . وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى عَقْلٍ ذَكِيٍّ وَتَفْكِيرٍ بارِعٍ . قالَ « أَبُو زِيادٍ » : « لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ كُلَّ أَشْجانِي، وَأُعَبِّرَ عَنْ جَمِيعِ أَحْزانِي ، لِأَنَّ الْكَلِماتِ لا تَفِي بِإِظْهارِ مَكْنُونِ شُعُورِي . وَلَوْ طاوَعَنِيَ التَّعْبِيرُ عَمَّا أُرِيدُ ، لَمْ يُطاوِعْنِي ضَعْفِي واخْتِلالُ صِحَّتِيَ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَتَأَذَّى كُلَّما عَرَضَتْ لَها تِلْكَ الذِّكْرَياتُ الطَّوِيلَةُ الْمُؤْلِمَةُ . وَلا أَكْتُمُكِ أَنَّ حَياتِي لَمْ تَكُنْ إِلَّا سِلْسِلَةً مُتَّصِلَةَ الْحَلَقاتِ مِنَ الْآلامِ وَالْمَصائِبِ . فَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا طَوِيلاً ، وَقَضَيْتُ عُمْرًا مَدِيدًا لَمْ يَكَدْ يَبْلُغُهُ حِمارٌ آخَرُ . وَما أَظُنُّكِ سَمِعْتِ أَنَّ حِمارًا بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ ثَلاثِينَ عامًا ، كَما بَلَغْتُهُ ».

فَتَجَدَّدَتْ دَهْشَتِي ، وَزادَ عَجَبِي مِمَّا سَمِعْتُ . وَتَفَرَّسْتُ (دَقَّقْتُ النَّظَرَ) فِي مَلامِحِهِ ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي سَماعِ قِصَّتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « الْحَقُّ يا صاحِبِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ ، أَنَّ مِنَ الْحَمِيرِ ما يَعِيشُ مِثْلَ هٰذا الْعُمْرِ الطَّوِيلِ . لا تَعْجَبْ يا ابْنَ عَمٍّ . أَلَيْسَ عُمْرُكَ الْآنَ أَرْبَعَةَ أَمْثالِ عُمْرِي تَقْرِيبًا ؟ »

فَتَعَجَّبَ « أَبُو زِيادٍ » ، وَهَزَّ رَأْسَهُ الْأَشْعَثَ (الْمُفَرَّقَ) الشَّعْرِ ، قائِلًا : « أَحَقٌّ ما تَقُولِينَ ؟ آمُلُ أَلَّا تَكُونِي قَدْ كابَدْتِ (عانَيْتِ) مِنَ الْمَتاعِبِ مِثْلَ ما كابَدْتُ . إِنَّنِي أُدْعَى : « أَبا زِيادٍ » أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ ، كانَ ذٰلِكِ ما أُطْلِقَ عَلَيَّ مُنْذُ سَنَواتٍ كَثِيرَةٍ سَلَفَتْ (مَضَتْ) . وَإِنْ كانَ يَلُوحُ (يَبْدُو) لِذاكِرَتِيَ الضَّعِيفَةِ أَنَّ ثَمَّةَ (هُناكَ) أَسْماءً أُخْرَى أُطْلِقَتْ عَلَيَّ فِي أَثْناءِ طُفُولَتِي ، وَلٰكِنِّي لا أَكادُ أَذْكُرُها الْآنَ .

٢ — أَيَّامُ السَّعادَةِ

لَقَدْ وُلِدْتُ فِي بَلَدٍ ناءٍ (بَعِيدٍ) عَنْ هٰذا الْبَلَدِ . وَحِينَ كُنْتُ طِفْلًا صَغِيرًا ، انْتَقَلْتُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ناءٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ عَبَرْتُ بَحْرًا واسِعًا جِدًّا فَوْقَ

مَرْكَبٍ تِجارِيٍّ كَبيرٍ ، ظَلِلْتُ فِيهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً حَتَّى بَلَغْتُ ذٰلِكَ الْبَلَدَ .
وَكُنْتُ — حِينَئِذٍ — فِي صُحْبَةِ أُمِّي وَجُمْهُورِ أَهْلِي ، وَظَلِلْتُ رَدَحًا (مُدَّةً)
مِنَ الزَّمَنِ أُعامَلُ مُعامَلَةً حَسَنَةً .

وَكانَ هَواءُ ذٰلِكَ الْبَلَدِ يَجْمَعُ بَيْنَ الدِّفْءِ والجَفافِ . فَشَعَرْتُ بِأَنَّهُ
يُوافِقُنِي أَتَمَّ مُوافَقَةٍ . وَسُرْعانَ ما صَحَّ جِسْمِي وَنَما .

وَكُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَمْتَدِحُونَ جَمالَ مَنْظَرِي وانْسِجامَ جِسْمِي (انْتِظامَهُ
واسْتِواءَهُ) ، وَيَقُولُونَ مُعْجَبِينَ : « يا لَهُ مِنْ حِمارٍ ! »

وَهُنا أَطْرَقَ « أَبُو زِيادٍ » دَقِيقَةً أَوْ دَقِيقَتَيْنِ ، كَأَنَّما غَرِقَ فِي ذِكْرَياتِ
تِلْكَ الأَيَّامِ الْغابِرَةِ (الْقَدِيمَةِ الْماضِيَةِ) .

وَكُنْتُ — حِينَئِذٍ — أَخْتَلِسُ (أَخْتَطِفُ بِسُرْعَةٍ عَلَى غَفْلَةٍ) بَعْضَ
النَّظَراتِ السَّرِيعَةِ إِلَى جِسْمِهِ النَّحِيفِ ، وَشَعْرِهِ الأَشْعَثِ (الْمُفَرَّقِ) ، وَأَنا
أَقُولُ لِنَفْسِي مُتَعَجِّبَةً : « تُرَى أَيْنَ ذَهَبَ جَمالُهُ الذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ ، فَإِنِّي
لا أَرَى لَهُ أَيَّ أَثَرٍ عَلَى التَّحْقِيقِ ؟ »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « أَبُو زِيادٍ » قائِلًا : « ما أَجْدَرَنِي أَنْ أَمُرَّ بِتِلْكَ الأَيَّامِ مَرًّا
سَرِيعًا ، فَقَدْ كانَتْ مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ جِدًّا ، وَقَدْ كِدْتُ أَنْساها ، وَقَلَّما ذَكَرْتُها .

قُلْتُ لَكِ : إِنَّنِي نَمَوْتُ (ازْدادَ حَجْمُ جِسْمِي) بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَأَصْبَحْتُ
وَاحِدًا مِنْ أَطْوَلِ أَبْناءِ أُسْرَتِي وَأَقْواها . وكانَ صاحِبِي رَجُلًا رَحِيمًا ، فَأَحْسَنَ
تَغْذِيَتِي ، كَما أَحْسَنَ مُعامَلَتِي . وَلَقِيتُ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَعَطْفِهِ ما لا مَزِيدَ عَلَيْهِ .
فَكانَ يَمْشُطُ شَعْرِي (يُسَرِّحُهُ وَيُخَلِّصُ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ) حَتَّى
أَصْبَحَ — لِفَرْطِ نَظافَتِهِ — لامِعًا ، كَما يَلْمَعُ شَعْرُكِ الجَمِيلُ !

فَلا تَعْجَبِي إِذا قُلْتُ لَكِ : إِنِّي — حِينَئِذٍ — شَمَخْتُ بِرَأْسِي مَزْهُوًّا
مُعْجَبًا بِهٰذا الثَّناءِ الَّذِي سَمِعْتُ ، وأَيْقَنْتُ أَنِّي أَصْبَحْتُ أَظْرَفَ حِمارٍ فِي الدُّنْيا
كُلِّها ، وأَنِّي جَدِيرٌ بِالانْتِسابِ إِلَى أَبِينا العَظِيمِ : شَحَّاجٍ الأَكْبَرِ . »

٣ — حُزْنُ الْأُمِّ

فَقُلْتُ لَهُ : « ذٰلِكَ مَعْقُولٌ ، فَأَتْمِمْ حَدِيثَكَ . » فَقالَ ، وَقَدْ سِيءَ وَجْهُهُ
(قَبُحَ) وعَلا الاكْتِئابُ سَحْنَتَهُ ، فَنَظَرَ إِلَيَّ بِوَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ (عابِسٍ مُتَغَيِّرٍ) :
« أَرْجُو أَلَّا تُقاطِعِينِي ، كَما أَرْجُو أَلَّا تَتَعَجَّلِينِي ، لِأَنِّي أَعْرِفُ ما يُقالُ
وما لا يُقالُ .

دَعِينِي أَقُصُّ عَلَيْكِ حَدِيثِي — كَما يَحْلُو لِي بِأُسْلُوبِيَ الخاصِّ — وإِلا
كَفَفْتُ (سَكَتُّ) عَنِ الكَلامِ بَتاتًا . »

فَقُلْتُ لَهُ : « الْحَقُّ ما تَقُولُ ، فَلَنْ أُقاطِعَكَ مَرَّةً أُخْرَى ! »

فَقالَ : « لَمّا أَوْفَتْ (أَشْرَفَتْ) سِنِّي عَلَى الثّانِيَةِ ، باعَنِي صاحِبِي . وَقَدِ امْتَلأَ قَلْبُ أُمِّي حُزْنًا وَرُعْبًا لِفِراقِي ، وَقالَتْ : « ما أَتْعَسَ حَظِّي ، فَإِنِّي مَنْكُوبَةٌ هٰكَذا دائِمًا . أَوَكُلَّما نَما (كَبِرَ) طِفْلٌ مِنْ أَطْفالِي ، أَخَذَهُ مِنِّي صاحِبِي قَسْرًا (كَرْهًا واغْتِصابًا) ، وَأَبْعَدَهُ عَنِّي ، فَلا أَكادُ أَظْفَرُ مِنْ أَوْلادِي إِلا بِصُحْبَةِ واحِدٍ مِنْهُمْ فَقَطْ . »

٤ — الصّاحِبُ الْجَدِيدُ

ثُمَّ أَخَذَنِي صاحِبِيَ الْجَدِيدُ ، إِلَى مُرْتَفَعاتٍ مِنَ التُّلُولِ والْهِضابِ الْعالِيَةِ وَمُنْخَفِضاتٍ مِنَ السُّهُولِ — والْأَوْدِيَةِ والْوِهادِ (وَهِيَ : الأَراضِي الْمُنْخَفِضَةُ) حَيْثُ رَأَيْتُ أَقْدامِي لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَثَبَّتَ فِي الأَرْضِ . وَما أَظُنُّ أَنَّ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَمْشِيَ فِي تِلْكَ الْمَسالِكِ الْخَطِرَةِ الَّتِي كُنْتُ أَرْتادُها (أَسِيرُ فِيها) جِيئَةً وَذَهابًا . »

فَقالَتْ «قَسامَةُ» : « ذٰلِكَ ما لَمْ أُحاوِلْهُ قَطُّ ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ إِذَنْ أَنْ أَعْرِفَ : أَفِي مَقْدُورِي هٰذا أَمْ فِي غَيْرِ مَقْدُورِي؟ ولٰكِنْ لا رَيْبَ أَنَّكَ

عَلَى حَقٍّ ، فَإِنَّنِي ثَقِيلَةُ الْجِسْمِ ، وَأَرْجُلِي لَيْسَتْ رَشِيقَةً (لَيْسَتْ خَفِيفَةَ الْحَرَكَةِ) كَأَرْجُلِكَ . فَهِيَ لِذٰلِكَ لا تَصْلُحُ لِلسَّيْرِ فِي الْأَماكِنِ الْوَعْرَةِ (الصَّعْبَةِ) . »

فاسْتَأْنَفَ « أَبُو زِيادٍ » قائِلًا : « ذٰلِكَ حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ . فَلَيْسَ فِي مَقْدُورِ أَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يُمارِسَهُ (يُعالِجَهُ) وَيُجَرِّبَهُ وَيَتَعَرَّفَ مَدَى (مِقْدارَ) قُدْرَتِهِ — أَوْ عَجْزِهِ — عَنْ مُزاوَلَتِهِ (عَمَلِهِ والْقِيامِ بِهِ) .

٥ — فِي أَعالِي التِّلالِ

لَقَدْ كُنْتُ — أَنا نَفْسِي — أَحْسَبُنِي عاجِزًا عَنْ صُعُودِ التِّلالِ وَسَلالِمِ الْجِبالِ ، حِينَ رَأَيْتُها أَوَّلَ وَهْلَةٍ (أَوَّلَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ) فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ — حِينَ لَمْ أَرَ فِيها إِلّا مَنافِذَ لِلسَّيْرِ مُنْحَدِرَةً مُلْتَوِيَةً — أَنَّنِي غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ الصُّعُودَ إِلَيْها . وَشَعَرْتُ — حِينَ هَمَمْتُ بِارْتِقائِها (الصُّعُودِ فِيها) — أَنَّنِي لَنْ أَلْبَثَ أَنْ أَقَعَ عَلَى ظَهْرِي .

ولٰكِنَّنِي — حِينَ دَفَعْتُ رَأْسِي وَذِراعِي إِلَى الْأَمامِ قُدُمًا (بِلا الْتِواءٍ) ،

وَثَبَّتُّ أقدامِي في الصَّخْرِ تَثْبِيتاً — تَمَكَّنْتُ مِنَ السَّيْرِ ناجِياً (خالِصاً مِنَ الأذَى). وَكُتِبَتْ لِيَ السَّلامَةُ بَعْدَ ذلِكَ.»

٦ — بِدايةُ الشَّقاء

فَقُلْتُ لَهُ، وأنا أرْثِي لِحالِهِ (أرِقُّ وأعْطِفُ): «لَعَلَّكَ ابْتَهَجْتَ حِينَ بَلَغْتَ غايَتَكَ، وَوَصَلْتَ إلى القِمَّةِ (بَلَغْتَ رَأْسَ الجَبَلِ).»

فَقالَ: «لَقَدْ خُيِّلَ إلَيَّ أنَّ آلامِي قَدِ انْتَهَتْ. ولكِنْ، وا أسَفاهُ، فَقَدْ كانَتْ هذِهِ بِدايَةَ الآلامِ لا نِهايَتَها. وَطَبِيعِيٌّ أنِّي لَمْ أعْرِفْ هذِهِ الحَقائِقَ — حِينَئِذٍ — ولكِنَّنِي رَأَيْتُ في هذا الجُزْءِ مِنَ الجِبالِ جَماعَةً مِنَ المَعْدِنِيِّينَ (المُشْتَغِلِينَ بِاسْتِخْراجِ المَعْدِنِ) يَعْمَلُونَ في مَنْجَمٍ (والمَنْجَمُ: المَوْضِعُ الَّذِي تُسْتَخْرَجُ مِنْهُ المعادِنُ). وَرَأَيْتُ القِطَعَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ المَناجِمِ تُحْمَلُ عَلَى ظُهُورِ أفْرادٍ مِنْ أُسْرَتِيَ الحِمارِيَّةِ، إلَى السُّهُولِ المُنْبَسِطَةِ الواطِئَةِ فِي سَفْحِ الجَبَلِ. وَقَدْ كانَ ذلِكَ العَمَلُ سَهْلاً — إلى حَدٍّ كَبِيرٍ — عَلَى أبْناءِ عَشِيرَتِي مِنَ الحَمِيرِ المُدَرَّبِينَ الَّذِينَ أكْسَبَهُمُ العَمَلُ مَرانَةً (تَمْرِيناً) وخِبْرَةً.

أمّا أنا فَما كِدْتُ أبْلُغُ حافَةَ المُنْحَدَرِ (جانِبَهُ وطَرَفَهُ) — وَعَلَى ظَهْرِي أوَّلُ حِمْلٍ — حَتَّى رَجَعْتُ أدْراجِي مُرْتاعاً (عُدْتُ — مِنْ حَيْثُ أتَيْتُ — خائِفاً) مُفَزَّعاً.

٧ — ضَرْبَةُ العَصا

وَالآنَ صَوِّرِي لِنَفْسِكِ — يا «أُمَّ سَوادَةَ» — أنِّي كُنْتُ أبْغِي (أطْلُبُ) الذَّهابَ قُدُماً (إلى الأمامِ) وَلَمْ أُرِدْ إلّا أنْ أتَرَوَّى (أتَفَكَّرَ) لَحْظَةً، رَيْثَما أتَبَيَّنُ طَرِيقِي.

ولكِنَّ العامِلَ الَّذِي كانَ يَسُوقُنِي حِينَئِذٍ قالَ: «إنِّي دابَّةٌ عَنِيدَةٌ.» وَقَدْ أهْوَى (نَزَلَ) عَلَى ظَهْرِي بِضَرْبَةٍ مُوجِعَةٍ مِنْ عَصاهُ.

وَكانَتْ هذِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ تَلْمُسُ العَصا جَسَدِي (جِسْمِي). وَقَبْلَ أنْ أُواصِلَ سَيْرِي، حاوَلْتُ أنْ أُفَكِّرَ فِيما حَدَثَ، وأتَعَرَّفَ أسْبابَهُ. فَما راعَنِي (لَمْ يُفْزِعْنِي) إلّا عَصاهُ، وَهِيَ تَرْتَفِعُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَهْوِي (تَسْقُطُ) عَلَى ظَهْرِي مَرّاتٍ مُتَتالِيَةً (متتابِعَةً). وَلَمْ أكُنْ عَلَى الحَقِيقَةِ أدْرِي كَيْفَ كانَتْ تَنْتَهِي النَّتِيجَةُ، لَوْلا أنَّ صَدِيقِي «أبا عَيْرَةَ» دانانِي (قَرُبَ مِنِّي)،

ثُمّ أسَرَّ إلَيَّ فِي أُذُنِي هامِساً (متحدِّثاً بِصَوْتٍ خَفِيٍّ) : « هَلُمَّ فَتَحَرَّكْ — يا أبا زِيادٍ — فَهٰذا هُوَ ما يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنْكَ أنْ تَفْعَلَهُ . »

وكان « أبو عَيْرَةَ » مِنْ رِفاقِ المُجَرَّبِينَ بِأخْلاقِ سادَتِنا الأناسِيِّ (النَّاس) ، فَلَمْ أُخالِفْ لَهُ نُصْحاً . وَمَشَيْتُ فِي حَذَرٍ شَدِيدٍ ، وأنا أتَحَسَّسُ الأرْضَ بِأقْدامِي ، وَتَتَشَبَّثُ حَوافِرِي بِها ، وَقَدْ ضَمَمْتُ جِسْمِي ، وَحَنَيْتُ ظَهْرِي ، حَتَّى كادَ يَلْتَصِقُ بالأرْضِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ . وَلَمْ أَلْبَثْ أنْ بَلَغْتُ — فِي النِّهايَةِ — سَفْحَ الْجَبَلِ سالِماً .

٨ — غَباوَةُ النَّاسِ

وَكُنْتُ — فِي أثْناءِ سَيْرِي — دائِمَ التَّفْكِيرِ ، وَأنا أُسائِلُ نَفْسِي : « لِماذا ضَرَبَنِي الرَّجُلُ ؟ إنِّي لَمْ أرْتَكِبْ خَطأً قَطُّ . » وَلَمَّا أُنْزِلَتِ الأحْمالُ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِنا ، سألْتُ رَفِيقِي مُتَعَجِّباً : « خَبِّرْنِي — يا أبا عَيْرَةَ — ماذا نَقَمَ الرَّجُلُ (ماذا كَرِهَ وَأنْكَرَ) مِنِّي ، فَأهْوَى عَلَى جِسْمِي بِعَصاهُ الْغَلِيظَةِ ؟ »

فَأجابَنِي : « الأمْرُ بَيِّنٌ (واضِحٌ) — يا أبا زِيادٍ — فَإنَّ الرَّجُلَ قَدْ حَسِبَ (ظَنَّ) — حِينَ تَوَقَّفْتَ — أنَّكَ تُصِرُّ عَلَى الْوُقُوفِ ، وَأنَّكَ حَرَنْتَ فَلَنْ

تَسِيرَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَأصَرَّ عَلَى أنْ يُرْغِمَكَ عَلَى السَّيْرِ . وَلَعَلَّهُ لَوْ عَرَفَ السَّبَبَ الَّذِي دَعاكَ لِلتَّرَيُّثِ (الإبْطاء) ، لَكانَ أرْأَفَ بِكَ (أكْثَرَ رَحْمَةً) ، وَأعْظَمَ شَفَقَةً عَلَيْكَ . »

ثُمَّ قالَ : « إنَّ النَّاسَ — يا أبا زِيادٍ — لَمْ يَبْلُغُوا مِنَ التَّعَقُّلِ والْفَهْمِ تِلْكَ الْمَرْتَبَةَ الَّتِي يَتَخَيَّلُونَها ، وَيَزْعُمُونَها لِأنْفُسِهِمْ . إنَّهُمْ — لِقِصَرِ عُقُولِهِمْ ، وَضَعْفِ إدْراكِهِمْ — يَتَّهِمُونَنا بِالْبَلاهَةِ وَالْغَباوَةِ ، وَإنْ كانُوا هُمْ أنْفُسُهُمْ يَصِلُونَ — أحْياناً — فِي هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ إلَى أبْعَدَ مِمَّا بَلَغْنا . »

٩ — فَهْمٌ خاطِئٌ

ذٰلِكَ ما حَدَّثَنِي بِهِ رَفِيقِي « أبُو عَيْرَةَ » وَهُوَ عَلَى صَوابٍ فِيما ذَهَبَ إلَيْهِ . وَلا أكْتُمُكِ — يا عَزِيزَتِي « قَسامَةُ » — أنَّ هٰذا الرَّجُلَ — لِسُوءِ الْحَظِّ — قَدْ أساءَ الظَّنَّ بِي ، فَتَحامَلَ عَلَيَّ (اشْتَدَّ وَعَنُفَ) بَعْدَ هٰذا الْحادِثِ الْمَشْئُومِ .

لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِهِ (قَلْبِهِ) أنَّنِي حَرُونٌ (عاصٍ لا أنْقادُ) ، عَنِيدٌ فَلَمْ يَنْسَ لِي ذٰلِكَ الْمَوْقِفَ أبَداً .

وَكُنْتُ — مُنْذُ هٰذا الْيَوْمِ — لا أَكادُ أَقِفُ لَحْظَةً ، لِأَتَنَفَّسَ أَوْ أَتَمَلْمَلَ مِنْ حِمْلِي قَلِيلًا ، حَتَّى يَنْهالَ عَلَيَّ ضَرْبًا مُبَرِّحًا (مُؤْذِيًا) ، بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ .

١٠ — جُهْدٌ غَيْرُ مَشْكُورٍ

وَلَقَدْ بَذَلْتُ إِمْكانِي ، وَلَمْ أَدَّخِرْ وُسْعًا فِي إِرْضاءِ صاحِبِي ، وَتَحْقِيقِ رَغَباتِهِ . فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي فِي الْمُنْحَدِراتِ وَالْمُنْعَرَجاتِ الضَّيِّقَةِ ، بِخُطًى ثابِتَةٍ ، قانِعًا بِالتّافِهِ (الْحَقِيرِ) مِنَ الزّادِ ، راضِيًا بِالْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنَ الطَّعامِ . حَتَّى لَوَدِدْتُ (تَمَنَّيْتُ) لَوْ قَدَرْتُ عَلَى الْحَياةِ — بِغَيْرِ زادٍ — ما دامَ يَحْلُو لَهُ أَنْ أَمُوتَ جُوعًا . وَكُنْتُ أَحْمِلُهُ مُسْرِعًا فِي السُّهُولِ ، وَأَعْدُو (أَجْرِي) بِهِ فِي أَثْناءِ عَوْدَتِهِ . وَلٰكِنَّ هٰذا كُلَّهُ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا . فَقَدِ اسْتَقَرَّ فِي خَلَدِهِ (بالِهِ) ، وَثَبَتَ فِي نَفْسِهِ : أَنَّنِي حَرُونٌ عَنِيدٌ ، وَأَنَّنِي إِنَّما أُسْرِعُ فِي الْجَرْيِ ، خَوْفًا مِنْ عَصاهُ ، لا تَلْبِيَةً لِهَواهُ ، وَاسْتِجْلابًا لِمَحَبَّتِهِ وَتَوَخِّيًا (اخْتِيارًا وَقَصْدًا) لِرِضاهُ . فَلَمْ يُغْنِنِي ذٰلِكَ أَقَلَّ غَناءٍ (لَمْ يَعُدْ عَلَيَّ بِأَقَلِّ فائِدَةٍ) . وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي ضَرْبِي لِأَتْفَهِ الْأَسْبابِ ، كُلَّما خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنِّي قَصَّرْتُ . »

١١ — فِي مَحَلَّةِ الْقَصَبِ

فَقُلْتُ لَهُ مُهَدِّئَةً مِنْ أَلَمِهِ وَحِدَّتِهِ ، مُخَفِّفَةً مِنْ غَضَبِهِ وَثَوْرَتِهِ : « مِسْكِينٌ أَنْتَ يا صاحِبِي . لَقَدْ مَرَّتْ بِكَ أَوْقاتٌ سُودٌ ، وَمِحَنٌ (مَصائِبُ) قاسِيَةٌ . فَقَدْ لَقِيتَ — إِلَى وَفْرَةِ الْعَناءِ (كَثْرَةِ التَّعَبِ) — سُوءَ الْجَزاءِ (قُبْحَ الْمُكافَأَةِ) . فَكَمْ مِنَ الزَّمَنِ بَقِيتَ عَلَى هٰذِهِ الْحالِ ؟ »

فَقالَ « أَبُو زِيادٍ » : « سَنَواتٍ عِدَّةً — عَلَى الْحَقِيقَةِ — حَتَّى فَرَغَتْ مُحْتَوَياتُ الْمَناجِمِ . » فَقُلْتُ لَهُ : « فَماذا لَقِيتَ مِنَ الْأَحْداثِ (الْحَوادِثِ) بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ » فَقالَ : « لَقَدْ باعَنِي صاحِبِي — مَعَ جَمْهَرَةٍ مِنْ رِفاقِي وَإِخْوانِي — لِرَجُلٍ آخَرَ . فَسارَ بِنا فِي الْوِدْيانِ وَالسُّهُولِ ، حَتَّى بَلَغْنا مَحَلَّةً كَبِيرَةً ، حَيْثُ وُضِعْنا فِي عَرَبَةِ قِطارٍ أَقَلَّتْنا (حَمَلَتْنا) حَتَّى بَلَغَ بِنا شاطِئَ الْبَحْرِ . وَثَمَّ حَمَلَتْنا سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ نَقَلَتْنا إِلَى مَزْرَعَةٍ واسِعَةٍ يَنْمُو فِيها قَصَبُ السُّكَّرِ . وَلَمْ يَكُنِ الْمَكانُ بَلَدًا عَظِيمًا كَذٰلِكَ الْبَلَدِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، بَلْ دَسْكَرَةً (قَرْيَةً) مُشْرِفَةً عَلَى الْبَحْرِ ، مَمْلُوءَةً بِالْهِضابِ وَالْمُرْتَفَعاتِ .

وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّها — لَوْ لَمْ تَكُنْ هٰكَذا — لَما احْتاجَ إِلَيْنا أَحَدٌ . واقْتَصَرَ عَمَلُنا عَلَى حَمْلِ عِيدانِ الْقَصَبِ إِلَى الْمَعامِيرِ . وَلٰكِنَّ الطُّرُقَ — الَّتِي كُنَّا نَجُوسُ أَثْناءَها (نَسِيرُ خِلالَها) — كانَتْ شَدِيدَةَ الانْحِدارِ ، حَتَّى لَيَصْعُبُ عَلَى السَّائِرِينَ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَيْها أَقْدامُهُمْ . وَكانَ الرَّجُلُ الْمَنُوطُ (الْمُتَعَلِّقُ) بِهِ رِعايَتُنا (الْعِنايَةُ بِنا) ، أَحْسَنَ بِكَثِيرٍ مِنْ صاحِبِنا الْأَوَّلِ . وَكانَ عَلَى الْأَغْلَبِ — فِيما يَلُوحُ لَنا — طَيِّبَ الْقَلْبِ ، حَسَنَ الْمُعامَلَةِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ ماذا يَحْدُثُ مِنْهُ فِيما بَعْدُ .

١٢ — نِهايَةُ كَرِيمٍ

وَذاتَ يَوْمٍ بَيْنَا كُنَّا نَهْبِطُ فِي طَرِيقٍ مُنْحَدِرٍ ، يَكادُ يَكُونُ عَمُودِيًّا ، زَلَّتْ قَدَمُهُ ، فَهَوَى (سَقَطَ) إِلَى الْقاعِ ، وَتَرَدَّى فِي الْحَضِيضِ (وَقَعَ فِي الْمَكانِ الْوَطِيءِ السَّحِيقِ) . وَلَمْ نَرَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ مَرَّةً أُخْرَى . فَلا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّهُ قُتِلَ .

وَلا تَسْأَلِي — يا أُمَّ سَوادَةَ — عَنْ مَبْلَغِ حُزْنِنا عَلَيْهِ . فَقَدْ أَحْبَبْناهُ لِشَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَالْحِمارُ — كَما تَعْلَمِينَ — شَكُورٌ يُثْمِرُ فِيهِ الْمَعْرُوفُ .

وَلا غَرْوَ (لا عَجَبَ) فِي ذٰلِكَ ، فَقَدْ وَرِثْنا هٰذا الْخُلُقَ النَّبِيلَ عَنْ جَدِّنا الْأَعْلَى : « شَحّاجٍ » — مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ إِلَى الْيَوْمِ — وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُنا عِرْفانًا بِالْجَمِيلِ . وَجِنْسُنا مُتَحابٌّ (يُحِبُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) ، مَعْرُوفٌ بِنَقاءِ السَّرِيرَةِ (حُسْنِ النِّيَّةِ) ، وَطِيبَةِ الْقَلْبِ . لا يَتَرَدَّدُ فِي شُكْرِ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ ، مَهْما قَلَّ ما يُسْدِيهِ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ (ما يُقَدِّمُهُ لَهُ مِنْ مَعْرُوفٍ) . »

فَقالَتْ « قَسامَةُ » : « هٰكَذا سَمِعْتُ ، يا أَبا زِيادٍ ؟ فَكَيْفَ حالُ سَيِّدِكَ الْجَدِيدِ ؟ » فَقالَ : « لَقَدْ كانَ أَطْيَبَ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ قَلْبًا ، وَأَصْفاهُمْ نَفْسًا ، وَأَوْفَرَهُمْ (أَكْثَرَهُمْ) رَحْمَةً :

كانَ مِنَ الزُّنُوجِ . وَكانَ وَجْهُهُ أَشَدَّ سَوادًا مِنْ جَمِيعِ رِفاقِهِ (مِنْ كُلِّ أَصْحابِهِ) . وَلٰكِنَّ أَيادِيَهُ الْبِيضَ (نِعَمَهُ الْحِسانَ) قَدْ مَلَأَتْ قُلُوبَنا حُبًّا لَهُ وَعِرْفانًا لِجَمِيلِهِ . فَقَدِ اعْتادَ أَنْ يُمَنِّيَنا وَنَحْنُ نَمْشِي الْهُوَيْنَى (فِي بُطْءٍ) ، وَعَلَيْنا الْأَثْقالُ وَالْأَحْمالُ . وَكانَتِ الرِّحْلاتُ تَبْدُو لَنا — عَلَى طُولِها — أَقْصَرَ مِمَّا هِيَ ، كَما كُنَّا نَشْعُرُ أَنَّ أَحْمالَنا الثَّقِيلَةَ أَخَفُّ مِنْ حَقِيقَتِها .
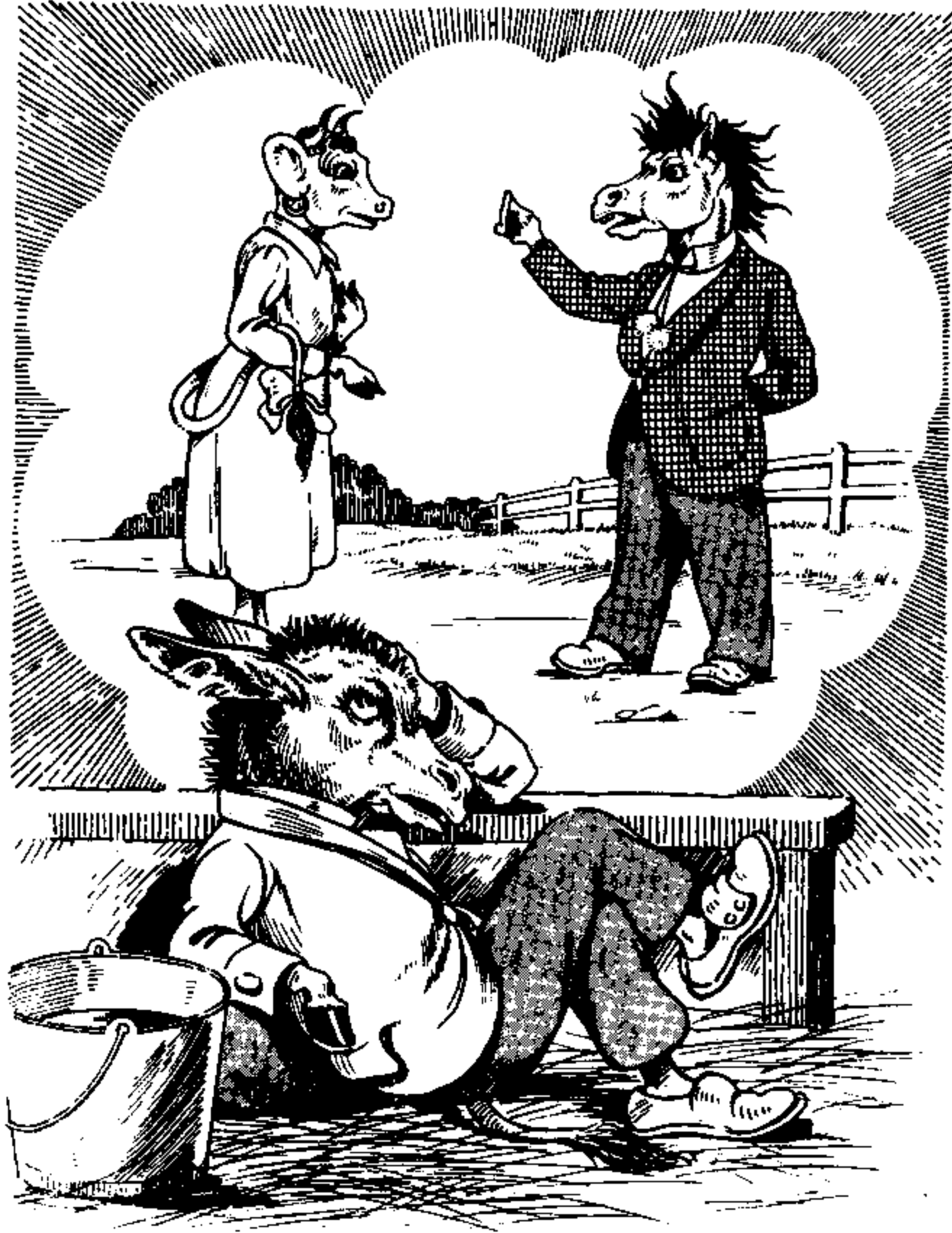
الفصل الخامس

عَوْدَةُ أَبِي زِيادٍ

١ – ذِكْرَياتُ الإِصْطَبْل

لَقَدْ تداوَلَتْنى مُنْذُ ذٰلكِ الحِينِ ، كَثِيرٌ من الأَيْدِى ، (أَخَذَتْنى هٰذِهِ مرَّةً ، وهٰذِهِ مَرَّةً) ، وَحَلَلْتُ فِي أَماكِنَ عِدَّةٍ ، لَقِيتُ فِيهـافُنُونًا (صُنُوفًا) مِنَ السَّعادَةِ ، وضُرُوبًا مِنَ الشَّقاء .

وَما أَنْسَ لا أَنْسَ عامًا قَضَيْتُهُ فِي ضَيْعَةٍ شَبِيهَةٍ بِضَيْعَتِكُمْ هٰـذِهِ ، الَّتى نَعِمْتُ فِيها بِلُقْياكِ (لقائكِ) يا « أُمَّ سَوادَةَ » .

وكانَ يُؤْنِسُنا فِي الإِصْطَبْلِ – حينئذٍ – جَماعةٌ مِنَ الأَصْفِياء ، نَعِمْتُ بِحُبِّهِمْ ، وَسَعِدْتُ بِإِينَاسِهِمْ. آهٍ يا ابنةَ عَمٍّ ! أَيْنَ مِنْ عَيْنَيَّ ذٰلكِ العَهْدُ السَّعِيدُ، وعَيْشُهُ الرَّغِيدُ (الطَّيِّبُ الواسِعُ) .

أَيْنَ مِنْ عَيْنَيَّ تِلْكِ البَقَرَةُ الجميلةُ السَّمْراء الشَّمَرِ ، الَّتى كُنَّا نُطْلِقُ عليها لَقَبَ : الخَنْساء .

وأَيْنَ بِنْتُها : الجُؤْذَرَةُ : تِلْكِ المِجْلَةُ الظَّرِيفَةُ ؟ أَيْنَ أُمُّ الأَشْعَثِ :

تِلْكِ العَنْزُ الرَّشيقَةُ (ذاتُ القَدِّ الحَسَنِ اللَّطيفِ)، المُرْتَفِعَةُ القَرْنَيْنِ، الطَّوِيلَةُ اللِّحْيَةِ، المَوْفُورَةُ النَّشاطِ، الدَّائِمَةُ الجَرْيِ، الَّتي لا تَكادُ تَسْتَقِرُّ في مَكانِها لَحْظَةً ؟ وَأَيْنَ وَلَدُها: أبو بُجَيْرٍ: ذٰلِكَ الفَتَى الحَبيبُ إلى نَفْسِ كُلِّ مَنْ رَآهُ ؟ لَقَدْ كانَ – حينَئِذٍ – في مُقْتَبَلِ شَبابِهِ. وما أَظُنُّهُ باقِيًا – إلى اليَوْمِ – عَلَى قَيْدِ الحَياةِ !

أَيْنَ أُمُّ فَرْوَةَ: تِلْكِ النَّعْجَةُ البَيْضاءُ المَرِحَةُ (الَّتي اشْتَدَّ فَرَحُها وَنَشاطُها حَتَّى جاوَزَ الحَدَّ). شَدَّ ما كانَتْ تَزْهَى وتَخْتالُ حينَ تُنادِيها بِـ «أُمِّ فَرْوَةَ»: تِلْكِ الكُنْيَةِ الحَبيبَةِ إلى نَفْسِها. وَأَيْنَ وَلَدُها: الطَّلِيُّ ؟ ما كانَ أَجْمَلَهُ حَمَلًا (خَرُوفًا فَتِيًّا) ! وما كانَ أَظْرَفَ شَعْرَهُ المُجَعَّدَ (شَعْرَهُ الَّذي فيهِ الْتِواءٌ وتَقَبُّضٌ) !

وَأَيْنَ أبو دُلَفَ: ذٰلِكَ الخِنَّوْصُ (الخِنْزيرُ الصَّغيرُ) المُكَفَّتُ الأَنْفِ (يَعْني: أَنَّ أَنْفَهُ مُتَضامٌّ مُتَكَبِّبٌ) ؟ وأَيْنَ صَديقِيَ العَزيزُ «لاحِقٌ». لَقَدْ كانَ – يا أُمَّ سَوادَةَ – جَوادًا (حِصانًا) جَميلًا. أَسْمَرَ، كَريمَ الطَّبْعِ. وقَدْ ذَكَّرَتْني بِهِ شَمائِلُكِ (طَبائِعُكِ وأَخْلاقُكِ) النَّبيلَةُ، وما مَيَّزَكِ اللّٰهُ بِهِ مِنْ لُطْفٍ ودَماثَةٍ (خُلُقٍ سَهْلٍ).

وَأَيْنَ ابْنُ وازِعٍ: حارِسُ الإِصْطَبْلِ، الجَرِيءُ اليَقِظُ، الَّذي كانَ اسْمُهُ يَقْذِفُ الرُّعْبَ في قُلوبِ الذِّئابِ واللُّصوصِ جَميعًا.

وما أَنْسَ – مِنْ تِلْكِ الأَيَّامِ البَهيجَةِ الَّتي قَضَيْتُها في ذٰلِكِ الإِصْطَبْلِ الفَسيحِ – لا أَنْسَ لَيْلَةً اسْتَيْقَظْتُ فيها عَلَى رَنينِ صَوْتٍ عالٍ، تَبَيَّنَ لي – بَعْدَ قَليلٍ – أَنَّهُ مُنْبَعِثٌ مِنْ جَلاجِلِ أُمِّ الأَشْعَثِ (العَنْزِ) فَعاتَبْتُها، فَاعْتَذَرَتْ عَمّا بَدَرَ مِنْها. وَما كادَتْ تُتِمُّ اعْتِذارَها حَتَّى اسْتَيْقَظَتِ الخَنْساءُ (البَقَرَةُ) مِن نَوْمِها، وَأَنْحَتْ عَلَيْها بِاللّائِمَةِ (أَقْبَلَتْ عَلَيْها تَلومُها). واسْتَيْقَظَ مَعَها أبو دُلَفَ (الخِنْزيرُ)، والطَّلِيُّ (الحَمَلُ)، وأبو بُجَيْرٍ (الجَدْيُ)، وَأُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ)، وَأُمُّ الأَشْعَثِ (العَنْزُ)، ولاحِقٌ (الجَوادُ). يا لَها لَيْلَةً بَهيجَةً، مَرَّتْ بِنا كَما تَمُرُّ الأَحْلامُ السَّعيدَةُ ! لَقَدْ مَثَّلْنا تِلْكِ اللَّيْلَةَ – مَسْلاةً رائِعَةً في ذٰلِكِ الإِصْطَبْلِ الفَسيحِ.»

* * *

وَدَفَعَني الشَّوْقُ إلى تَعَرُّفِ تِلْكِ المَسْلاةِ الَّتي مَثَّلَها «أبو زِيادٍ» وَأَصْحابُهُ في الإِصْطَبْلِ، فَأَفْضَى إلَيَّ (أَخْبَرَني) بِها في أُسْلوبٍ مُمْتِعٍ جَذّابٍ.

وَقَدْ حفزَنِي (دَفَعَني) فَرْطُ الإِعْجابِ بِتِلْكَ المَسْلاةِ (الكوميذيا) إِلَى تصْدِيرِ خَوَاطِرِي بِها (جَعْلِها صَدْرًا لها وَدِيباجَةً)، لِتَكُونَ أَوَّلَ ما تَمَتَّعُ بِهِ أَيُّها القارِئُ الصَّغِيرُ.

* * *

ولَمّا سَأَلْتُ «أَبا زِيادٍ» أَنْ يُتِمَّ ما بَدَأَهُ مِنْ حَدِيثٍ، قال:

«إِنَّ تارِيخي — يا أُمَّ سَوادَةَ — مُتَشَعِّبٌ، حافِلٌ (مملوء) بالكوارث والمِحَنِ (المَصائِبِ والخُطُوب). وَحَسْبِي أَنْ أَجْتَزِئَ (أَكْتَفِيَ) مِنْهُ بِأَشَدِّهِ أَثَرًا فِي نَفْسِي.

٢ — السَّفِينَةُ الغارِقَةُ

قُلْتُ لَكِ — يا «أُمَّ سَوادَةَ» — إِنَّني تَقَلَّبْتُ فِي فُنُونٍ مِنَ السَّعادَةِ، وَضُرُوبٍ مِنَ الشَّقاءِ. وَلَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ — بَعْدَ أَنْ ماتَ صاحِبُ الضَّيْعَةِ، وانْتَقَلَتْ أَمْلاكُهُ إِلى غَيْرِهِ — زَمَنٌ طَوِيلٌ زاخِرٌ بِفُنُونِ البَلاءِ، وَجالِياتِ الشَّقاءِ.

وَعَلى ما كابَدْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ مُضْنٍ (مُمْرِض) وَسُوءِ مُعامَلَةٍ — سمِعْتُ

النّاسَ يَنْعَتُونَنِي (يَصِفُونَنِي) بالرَّشاقَةِ (حُسْنِ القَدِّ ولُطْفِهِ)، والأَناقَةِ (الجمالِ المُعْجِبِ).

وذاتَ يَوْمٍ جاءَنِي رَجُلٌ مِنَ المُوسِرِينَ (الأَغنياء)، فاشْتَرانِي، وَسارَ بِي حتى بَلَغْنا شاطِئَ البَحْرِ، حَيْثُ أَقَلَّتْنِي (حَمَلَتْني) سَفِينَةٌ مَعَهُ. وَقَدْ سَمِعْتُ السَّيِّدَ الجدِيدَ يَقُولُ: إِنَّ لَهُ بِنْتًا صَغِيرَةً، وَإِنَّها تَرى فِي مِثْلِي خَيْرَ أَنِيسٍ وَصاحِبٍ. وثَمَّةَ (هُنا) اسْتَرَحْتُ، وَدَبَّ فِي قَلْبِي دَبِيبُ الأَمَلِ، فَقَدِ اعْتَقَدْتُ أَنَّ حَظِّيَ الحَسَنَ قَدْ عادَ إِلَيَّ. وَلٰكِنْ شَدَّ ما خابَ ظَنِّي، فَقَدْ غَرِقَتِ السَّفِينَةُ بِمَنْ فِيها وَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ — غَيْرِي — مِنْ راكِبِيها. ولَقَدْ كُنْتُ فِيها مِنَ المُغْرَقِينَ، لَوْلا أَنَّنِي — لِحُسْنِ حَظِّي أَوْ سُوئِهِ — قَدْ نجَوْتُ مِنَ الغَرَقِ، وَسَلِمْتُ مِنَ الهلاكِ، بِأُعْجُوبَةٍ.

أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ سَلِمْتُ؟ لَقَدْ فَتَحَ أَحدُ المَلّاحِين بابَ غُرْفَتِي قُبَيْلَ أَنْ يَمْلَأَها الماءُ، وَكانَ قَدِ ارْتَفَعَ حتى غَمَرَ قَوائِمِي (عَلا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ). وَرَأَيْتُنِي — حِينَئِذٍ — أُغالِبُ الأَمواجَ وَأُصارِعُها، ضارِبًا إِيّاها بِكُلِّ قُوَّتِي. ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قَوائِمِي عَلَى الساحِلِ، وَلَمَسْتُ أَرْضَ الشّاطِئِ فَجْأَةً. وَثَمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا واقِفًا عَلَى الضَّفَّةِ قَرِيبًا مِنِّي. فَأَمْسَكَ بِي مِنْ مَعْرَفَتِي (شَعْرِ عُنُقِي)،

ثمَّ جَذَبَنِى منَ الماء فأخرجَنى .

٣ — صيَّادُ السَّمك

وَكانَ هٰذا الرَّجُلُ — كما علِمتُ فى قابِلِ أيَّامِى — صيَّادَ سَمَكٍ شَديدَ الفقرِ ، فأخذَنِى مَعَهُ إلى عُشَّتِهِ الحَقِيرةِ البائِسَة . وَكانَتْ فَرْوَتِى الجميلة لا تَزالُ مُبْتلَّةً ، فَلَمْ يُعْنَ (لَمْ يَهْتَمَّ) بتَجْفيفِها ، فارْتَعَشْتُ منَ البَرْدِ . وَرآنِى أرْتَعِدُ (أرتَعِشُ) ، فلَمْ يأبَهْ لِأَمْرِى ، ولَمْ يَحْفِلْ بِما أصابَنِى .

ثمَّ وَضَعَنِى فى زَرِيبَةٍ قَدِيمَةِ البُنْيانِ ، مُتَداعِيَةِ الجُدْرانِ (مُتَهَدِّمَةِ الحِيطانِ) . وَكانَتْ — عَلَى قَذارَتِها — يَتَخَلَّلُها تيَّارٌ منَ الهَواءِ . وَقَدْ بَخِلَ عَلَىَّ — إلَى ذٰلِكَ — بِحُزْمَةٍ مِنَ القَشِّ ، تَكُونُ لِى مِهادًا (فِراشًا) ، أُرِيحُ نَفْسى عَلَيْهِ ، فى أثناءِ النَّوْمِ .

٤ — الأسْرَةُ البائسةُ

يا لَهُ مِنْ عَهْدٍ طَويلٍ حافلٍ (مَمْلُوءٍ) بِفُنُونِ البُؤْسِ ، وضُرُوبِ الشَّقاء . فَلْأَمُرَّ سَرِيعًا بِهٰذِهِ السِّنِينَ التَّاعِسَةِ الَّتِى قَضَيْتُها عِنْدَ الصَّيَّادِ . فَما أشُكُّ فى

أنَّ المَتاعِبَ الَّتِى حَفَلَتْ بِها حِينَئِذٍ كانَتْ — عَلَى كَثْرَتِها — قَلِيلَةَ الخَطَرِ ، لأنَّها لا تَتَجاوَزُ فِقْدانَ الطَّعامِ ، أوْ فِقْدانَ الماءِ النَّظِيفِ ، أوْ فِقْدانَ العِنايَةِ بِمَشْطِ شَعْرِى ، إلَى أشْباهِ ذٰلِكَ مِنَ المُنَغِّصاتِ الَّتِى يُهَوِّنُها الصَّبْرُ .

وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أمْرٍ ، فَقَدْ بَذَلَ الصَّيَّادُ الفَقِيرُ قُصارَى جُهْدِهِ (غايَةَ ما فى وُسْعِهِ) ، وَلَمْ يَتَعَمَّدِ التَّقْصِيرَ فى شَىْءٍ مِنْ حُقُوقِى . لَقَدْ كانَ عائِلًا (كانَ لَهُ أوْلادٌ يَعُولُهُمْ ، أعْنِى : يَقُوتُهُمْ وَيُنْفِقُ عَلَيْهِمْ) ، وكانَتْ زَوْجُهُ مُعْتَلَّةَ الجِسْمِ ، لا تَكادُ تُفِيقُ مِنْ أمْراضِها . وَلَمْ يَكُنْ حَظُّ تِلْكَ الأُسْرَةِ المَنْكُودَةِ فى الحَياةِ بِأحْسَنَ مِنْ حَظِّىَ التَّاعِسِ . لَقَدْ كُنَّا جَمِيعًا أُسْرَةً مُهْمَلَةَ العِنايَةِ ، لَمْ تُظْفِرْها الدُّنْيا بِشَىْءٍ مِنَ الرِّعايَةِ . وَشَعِثَ شَعْرِى (تَفَرَّقَ) شَيْئًا فَشَيْئًا . وَهَزَلْتُ ، وَشَعَرْتُ بالذِّلَّةِ ، بَعْدَ أنْ فَقَدْتُ العُجْبَ والزَّهْوَ بِجَمالِى .

ولٰكِنِّى بَقِيتُ — بِرَغْمِ هٰذا — مُحْتَفِظًا بِقُوَّتِى . وَلا عَجَبَ فى ذٰلِكَ فَإنَّا — مَعْشَرَ الحَمِيرِ — قادِرُونَ عَلَى الاحْتِمالِ ، مَعْرُوفُونَ بالصَّبْرِ عَلَى المَكارِهِ ، تَتَحَمَّلُ شَظَفَ العَيْشِ (خُشُونَتَهُ) دُونَ أنْ نُحِسَّ ألَمًا ، أوْ نَشْعُرَ بِغَضاضَةٍ (ذِلَّةٍ) . »

٥ — عابرُ سَبيلٍ

فَقُلْتُ لَهُ : « صَدَقْتَ يا ابْنَ عَمٍّ ، فَقَدْ سَمِعْتُ ذٰلِكَ عَنْكُمْ . ولٰكِنْ خَبِّرْنِي كَيْفَ تَسَنَّى (تَيَسَّرَ) لكَ أنْ تُفارِقَ هٰذا الصَّيَّادَ ؟ »

فَقالَ « أبُو زِيادٍ » مُفَكِّرًا : « هٰذا ما لَمْ أفْهَمْهُ إلَى الآنَ . لَقَدْ حَمَلْتُ عَلَى ظَهْرِي مِشَنَّتَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ سَمَكًا ، وَذَهَبْتُ بِهِما إلَى السُّوقِ . ثُمَّ وَقَفْتُ أمامَ الدُّكانِ الذي دَخَلَهُ صاحِبِي . وإنِّي لَواقِفٌ ، إذا بِرَجُلٍ عابِرِ سَبِيلٍ قَدْ وَقَفَ وَنَظَرَ إلَيَّ ، ثُمَّ قالَ يُخاطِبُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا :

« وَيْ ! ما أجْمَلَهُ حِمارًا ، لَوْ رُزِقَ حَظًّا مِنَ الْعِنايَةِ ، وَلَقِيَ نَصِيبًا مِنَ الرِّعايَةِ . أما إنَّهُ لَوْ ظَفِرَ بِما يَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ نَظافَةٍ وَطَعامٍ ، لَبَذَّ (فاقَ) « سُكَيْنًا » ذٰلِكَ الْحِمارَ الَّذِي لا يَكُفُّ عُمْدَةُ الْقَرْيَةِ عَنِ الْمُباهاةِ بِهِ ، وَيَزْعُمُ أنَّ أصْلَهُ مِنْ بَناتِ صَمْدَةَ (مِنْ نَسْلِ حُمُرِ الْوَحْشِ) ، لا مِنْ بَناتِ شَحّاجٍ : جَدِّنا الأعْلَى القَدِيمِ . وَلَقَدْ كادَ الجُوعُ والإهْمالُ يَقْتُلانِهِ وَيُعْجِزانِهِ عَنِ الْعَمَلِ ، وَيَسْلُبانِهِ الرَّشاقَةَ والنَّشاطَ .

ألا لَيْتَ صاحِبَهُ يَبِيعُهُ فَأشْتَرِيَهُ مِنْهُ بِأيِّ ثَمَنٍ شاءَ . »

٦ — عند سَقَطِيٍّ

وَفِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ خَرَجَ الصَّيَّادُ مِنَ الدُّكانِ . وَبَعْدَ أنْ حادَثَ ذٰلِكَ الْغَرِيبَ ، رَفَعَ الْمِشَنَّتَيْنِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِي ، ثُمَّ ذَهَبَ إلَى حَيْثُ لا أدْرِي .

وَأصْبَحَ ذٰلِكَ الْغَرِيبُ سَيِّدًا لِي مُنْذُ هٰذا الْيَوْمِ . وَقَدِ اتَّضَحَ لِي — فِيما بَعْدُ — أنَّهُ كانَ سَقَطِيًّا . »

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبَةً : « وَما هُوَ السَّقَطِيُّ ، فإنِّي لا أعْرِفُهُ يا أبا زِيادٍ ؟ »

فَقالَ : « إنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّجِرُ فِي سَقَطِ الْمَتاعِ (رَدِيءِ الأشْياءِ) . وَقَدْ تَعَوَّدَ السَّقَطِيُّ أنْ يَمُرَّ بِي عَلَى أبْوابِ الْمَنازِلِ . وَكانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأحْيانِ ، يَتَّجِرُ فِي الْخُضَرِ لِيَبِيعَها فِي الْمُدُنِ . وَقَدْ ألِفْتُ جَرَّ مَرْكَبَتِهِ ، والسَّيْرَ عَلَى قَوائِمِي طُولَ النَّهارِ . وارْتاحَتْ نَفْسِي لِتِجارَةِ الْخُضَرِ . فَقَدْ كُنْتُ أجُرُّ مَرْكَبَةً صَغِيرَةً كُلَّ صَباحٍ ، وأسُوقُها فِي أسْواقِ الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ أقْضِي مَعَهُ أكْثَرَ الْيَوْمِ ، بَلْ كُلَّهُ فِي بَعْضِ الأحْيانِ . فَكانَ طَعامِي مَوْفُورًا (كَثِيرًا) ، والْخُضَرُ مِنْ أشْهَى الزّادِ لَدَيَّ بِالطَّبْعِ . فَسَمِنْتُ ، وحَسُنَتْ صِحَّتِي ، واسْتَرْدَدْتُ (اسْتَرْجَعْتُ) قُوَّتِي مِنْ جَدِيدٍ . ولٰكِنَّ جِلْدِي لَمْ يَظْفَرْ بِما يَتَطَلَّبُهُ مِنَ

الْمَشْطِ والتَّنْظِيفِ قَطُّ . وَلَعَلَّكِ تَدْهَشِينَ إذا أَخْبَرْتُكِ أَنِّي لَقِيتُ بَعْدَ ذٰلِكَ — مِنْ فُنُونِ الإِهْمالِ — ما لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لِي عَلَى بالٍ . أَتُصَدِّقِينَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَظْفَرُ بِالرَّاحةِ طُولَ اللَّيْلِ ؟ وأَنَّ ما كُنْتُ أَلْقاهُ مِنَ الضَّرْبِ — فِي أَثْناءِ النَّهارِ — قَدْ حَرَمَنِي نَوْمِي ، وأَقَضَّ مَضْجَعِي لَيْلًا (جَعَلَهُ خَشِنًا ، والْمَضْجَعُ : الْمَحَلُّ الَّذِي يَضَعُ جَنْبَهُ بِهِ) . فَلَمْ تَطْعَمْ جَفْنايَ غَمْضًا (لَمْ تَذُقْ عَيْنايَ نَوْمًا) .

فَقُلْتُ لَهُ فِي هُدُوءٍ : « لَعَلَّ مَتاعِبَكَ قَدْ أَتْلَفَتْ صِحَّتَكَ ، وصَيَّرَتْكَ مَغْلُوبًا عَلَى أَعْصابِكَ ، وَحَبَّبَتْ إِلَيْكَ الْعِنادَ . فَأَصْبَحْتَ حَرُونًا شَيْئًا ؟ »

٧ — قَبْلَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ

فَأَجابَنِي فِي لَهْجَةِ الْيائِسِ الْحَزِينِ : « لَعَلَّ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ صَحِيحٌ . عَلَى أَنَّ الضَّرْبَ لَمْ يَعُدْ يُجْدِينِي نَفْعًا . » فَقُلْتُ لَهُ : « كَمْ مِنَ الزَّمَنِ قَضَيْتَ مَعَ هٰذا السَّقَطِيِّ ؟ » فَقالَ : « لازَمْتُهُ إِلَى ما قَبْلَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ مَضَتْ ! وقَدْ لَقِيتُ مِنْ سُوءِ مُعامَلَتِهِ ، ما بَغَّضَ إِلَيَّ الْحَياةَ . فَلَمْ أَعُدْ أَحْفِلُ بِالْبَقاءِ ، وأَصْبَحْتُ لا أُبالِي حَياتِي وَمَماتِي ، فَهُما عِنْدِي سَواءٌ . فَلا تَعْجَبِي إذا أَخْبَرْتُكِ أَنِّي زَهِدْتُ

فِي الطَّعامِ ، وقَلَّ أَكْلِي شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى هَزَلَ جِسْمِي ، واعْتَلَّتْ صِحَّتِي . وما زِلْتُ أَرْتَكِسُ (كُلَّما نَجَوْتُ مِنْ عِلَّةٍ ، رَجَعَتْ إِلَيَّ) ، وَيَشْتَدُّ بِي ضَعْفِي ، حَتَّى عَجَزْتُ عَنْ جَرِّ الْمَرْكَبَةِ . وأَصْبَحْتُ أَنُوءُ بِما أَحْمِلُهُ مِنْ أَثْقالٍ (لا أَقُومُ بِها إِلَّا مَجْهُودًا مُتْعَبًا مُثْقَلًا) . »

٨ — عَجْزُ الشَّيْخُوخَةِ

فَقُلْتُ لَهُ : « ثُمَّ ماذا حَدَثَ ؟ » فَقالَ : « لَقَدْ ضَجِرَ (ضاقَ) بِي صاحِبِي كَما ضَجِرْتُ بِهِ ، وَمَلَّنِي كَما مَلِلْتُهُ . فَقالَ لِي — ذاتَ يَوْمٍ — عابِسًا :

« لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْتَمِلَ بَقاءَكَ عِنْدِي بَعْدَ الْيَوْمِ . فَإِنَّكَ عاجِزٌ عَنِ الْعَمَلِ . فَما حاجَتِي إِلَى عاجِزٍ مِثْلِكَ ؟ خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَجُولَ فِي مَناكِبِ الْأَرْضِ (تَمْشِيَ فِي نَواحِيها) ، لَعَلَّكَ تَهْتَدِي بِنَفْسِكَ إِلَى بَيْتِ مُوسِرٍ (غَنِيٍّ) كَرِيمٍ : يُؤْوِيكَ ، ويُطْعِمُكَ ، دُونَ أَنْ تُؤَدِّيَ لَهُ عَمَلًا . »

ثُمَّ تَرَكَنِي فِي أَثْناءِ الطَّرِيقِ . »

٩ — فى مُنْتَصَفِ الشِّتاء

فَقُلْتُ لهُ : « لقدْ حدَّثْتنى : أن صاحِبَكَ قَدْ أخْرَجَكَ مِنْ بَيْتِهِ ، مُنْذُ ثلاثةِ أشْهُرٍ ، أعْنى : أنَّهُ طَرَدَكَ فى مُنْتَصَفِ فَصْلِ الشِّتاء . فَكَيْفَ صَنَعْتَ مُنْذُ ذٰلكَ الْيَوْمِ ؟ » فَقالَ : « ذَهَبْتُ أَرْتادُ (أَطْلُبُ) الأماكِنَ الخَلَوِيَّةَ ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ مَحَلَّةٍ إلَى أُخْرَى . ولَمْ يَكُنْ بِى قُدْرَةٌ عَلَى أَكْلِ ما خَشُنَ مِنَ الطَّعامِ ، مِمَّا كُنْتُ أَقْنَعُ بِهِ فِى أَيَّامِ شَبابِى . فَقَدْ ضَعُفَتْ أَسْنانِى عَنِ الْقَضْمِ (تَكْسِيرِ الْيابِسِ مِنَ الطَّعام) ، فَلَمْ تَعُدْ تَقْوَى عَلَى طَحْنِ ما آكُلُهُ ، كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ . وَأَبْغَضْتُ النّاسَ ، وَعافَتْهُمْ نَفْسِى (كَرِهَتْهُمْ) ، فَآثَرْتُ (اخْتَرْتُ) الْبُعْدَ عَنْهُمْ ، بَعْدَما لَقِيتُهُ مِنْ فُنُونِ الأَذِيَّةِ وَنِسْيانِ الْحُقوقِ ، وَضُرُوبِ الْعُقُوقِ (صُنُوفِ الْعِصْيانِ ، والاسْتِخْفافِ ، وتَرْكِ الشَّفَقَةِ) .

١٠ — خاتِمةُ الآلامِ

فَقُلْتُ لَهُ : « لَيْسَ كلُّ النّاسِ أَشْرارًا كما تَظُنُّ . وَسَتَرَى فِى هٰذهِ

الدَّسْكَرَةِ (الضَّيْعَةِ) ، أَقْصَى ما تَصْبُو (غايَةَ ما تَمِيلُ) إِلَيْهِ نَفْسُكَ مِنْ أَلْوانِ التَّكْرِيمِ وَحُسْنِ الْمُعامَلَةِ .

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ — يا أَبا زِيادٍ — أَنَّكَ لَنْ تُضْرَبَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَنْ تَلْقَى إِلّا خَيْرًا . فَإِنَّ جَمِيعَ الدَّوابِّ الَّتِى تَقْطُنُ (تَسْكُنُ) فى هٰذهِ الضَّيْعَةِ (الأَرْضِ الْواسِعَةِ الَّتِى تُنْبِتُ الْغَلّاتِ) تُعامَلُ أَحْسَنَ مُعامَلَةٍ . فَهَوِّنْ عليْكَ فَلَنْ تَلْقَى مِنّا إِلّا ما تَطِيبُ بِهِ نَفْسُكَ ، وَيَرْتاحُ لَهُ خاطِرُكَ (قَلْبُكَ) . »

فَقالَ « أَبو زِيادٍ » والشَّكُّ يُساوِرُهُ (يُغالِبُهُ) : « أَتَظُنِّينَ أَنَّهُ سَيُسْمَحُ لِى بِالْبَقاءِ إِلَى جِوارِكُمْ مَعَ ما تَرَيْنَ مِنْ عَجْزِى عَنْ أَداءِ أَىِّ عَمَلٍ ؟ »

١١ — الْفَرَسُ الْعَجُوزُ

فَأَجَبْتُهُ : « نَعَمْ ، فَإِنَّ صاحِبَ هٰذهِ الضَّيْعَةِ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَتْرُكَكَ نَهْبَ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ (فَرِيسَةً لَهُما) ، وَلَنْ يُسْلِمَكَ إِلَى الرَّدَى (الْمَوْتِ) إِلّا حَتْفَ أَنْفِكَ (مَوْتًا طَبِيعِيًّا) ، مَتَى حانَ حَيْنُكَ (مَتَى جاءَ أَجَلُكَ) .

كُنْ واثِقًا مِمّا أَقُولُ . فَإِنَّ فى دَسْكَرَتِنا (ضَيْعَتِنا) هٰذهِ فَرَسًا عَجُوزًا ،

اسْمُها « سَبَلْ » ، قَدْ أَعْجَزَتْها الشَّيْخُوخَةُ عَنِ الْعَمَلِ ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ أَرْذَلَ الْعُمْرِ ، وناهَزَتْ سِنُّها السَّادِسَةَ والْعِشْرِينَ . وهِيَ سَعِيدَةٌ بِالسُّكُونِ مَعَنا ، والْبَقاءِ إلى جانِبِنا ؛ وقَدْ هامَ الأَطْفالُ بِحُبِّها ، وَأَلِفُوا (تَعَوَّدُوا) رُكُوبَها كُلَّما أَتاحَتْ لَهُمُ الْفُرَصُ لِقاءَها . وهِيَ أَلِيفَةٌ وادِعَةٌ (ساكِنَةٌ هادِئَةٌ) لا تُؤْذِي أَحَدًا مِنْهُمْ ، بَلْ تُبادِلُهُمُ الْمَحَبَّةَ ، وَتُصْفِيهِمُ الوِدادَ (تُخْلِصُ فى حُبِّهِمْ) . »

الفصل السادس

قِصَّةُ أَبِي تَوْلَبٍ

١ — حَدِيثُ دَهْمانَ

فارْتاحَتْ نَفْسُ « أَبِي زِيادٍ » لِما سَمِعَ ، واطْمَأَنَّ بالُهُ ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ الصِّدْقَ فِيما حَدَّثْتُهُ بِهِ . ثُمَّ قالَ لِي وَقَدْ شاعَتِ الْبَهْجَةُ فى قَلْبِهِ ، ولاحَتِ السَّعادَةُ عَلَى مَلامِحِهِ .

« لَقَدْ وَعَدْتِنِي — يا أُمَّ سَوادَةَ — أَنْ تُحَدِّثِينِي بما قَصَّهُ عَلَيْكِ صاحِبُكِ « دَهْمانُ » مِنْ أَخْبارِ أَخِينا « أَبِي تَوْلَبٍ » . وَلَعَلَّكِ مُنْجِزَةٌ وَعْدَكِ الآنَ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْبِرِّ عاجِلُهُ » .

فَأَنْشَأَتْ « قَسامَةُ » تَقُصُّ عَلَى « أَبِي زِيادٍ » أَخْبارَ « أَبِي تَوْلَبٍ » وَرِحْلاتِهِ الْمُعْجِبَةَ . قالَتْ :

٢ — نَشْأَةُ « أَبِي تَوْلَبٍ »

حَدَّثَنِي « دَهْمانُ » عَنْ « أَبِي تَوْلَبٍ » أَنَّهُ قالَ :

« نَشَأْتُ – أَوَّلَ ما نَشَأْتُ – فى بَيْتِ « أُمِّ عِزْبِدَ » وَهِيَ سَيِّدَةٌ نَصَفٌ (اِمْرَأَةٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْحَدَاثَةِ والمُسِنَّة) ، تُناهِزُ (تُقارِبُ) الْخامِسَةَ والْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِها . وَكانَ لَها حَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ ، وَبَقَرَةٌ سَمِينَةٌ تُكْنَى « أُمَّ والِبَةَ » ، وَجَمْهَرَةٌ مِنَ الدَّجاجِ . وَقَدْ جَمَعَتْ بَيْنَ الزِّراعَةِ والتِّجارَةِ ، فَكانَتْ تَسْتَخْرِجُ – مِنْ لَبَنِ بَقَرَتِها – الْجُبْنَ والْقِشْدَةَ ، وَمِنْ حَدِيقَتِها الْخُضَرَ والْفاكِهَةَ ، وَمِنْ دَجاجِها الْبَيْضَ .

٣ – بَدْءُ الْكَراهِيَةِ

وكانت « أُمُّ عِزْبِدَ » (والعِزْبِدُ مَعْناهُ : الْحَيَّةُ) تَضَعُ كُلَّ طائِفَةٍ – مِنْ هٰذا – فِى مِشَنَّةٍ أَوْ سَلَّةٍ ، ثُمَّ تُثْقِلُ ظَهْرِى بِما لا أُطِيقُ حَمْلَهُ . وَلا تَكْتَفِى بِذٰلِكَ ، بَلْ تَجْمَعُ – إِلَى ثِقْلِ هٰذِهِ السِّلالِ – ثِقْلَ جِسْمِها السَّمِينِ . ثُمَّ تَأْمُرُنِى بِالذَّهابِ إِلَى السُّوقِ – وَهُوَ عَلَى مَسافَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ بَيْتِها – وَفِى يَدِها عَصًا طَوِيلَةٌ لا تَفْتَأُ تُلَوِّحُ بِها ، بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ ، ثُمَّ لا تَلْبَثُ أَنْ تَهْوِىَ بِها عَلَى جَسَدِى بِلا مُسَوِّغٍ . وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّها تَسْتَحِثُّنِي عَلَى مُضاعَفَةِ الْجُهْدِ ، والْإِسْراعِ فى الْعَدْوِ (الْجَرْىِ) ، فَلا يَزِيدُنِى ذٰلِكَ إِلَّا حِقْدًا عَلَيْها وَغَيْظًا مِنْها .

٤ – نَتِيجَةُ الْقَسْوَةِ

وَمَتَى حَقَدَ الْحِمارُ عَلَى صاحِبِهِ ، تَفَنَّنَ فِى مُماكَسَتِهِ ، فَحادَ عَنِ الصِّراطِ السَّوِىِّ (الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ) ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا (لَمْ يُقَصِّرْ) فى مُضايَقَتِهِ ، وَتَنْغِيصِ عَيْشِهِ . وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ . فَعَمَدْتُ (قَصَدْتُ) أَنْ أُعَرِّجَ بِها (أُمِيلَ بِها مِنْ جانِبٍ إِلى جانِبٍ) ، يَمْنَةً وَيَسْرَةً . وهِىَ تُحاوِلُ بِعَصاها أَنْ تُصْلِحَ ما فَسَدَ مِنْ أَمْرِى ، فَلا أَزْدادُ – عَلى الضَّرْبِ – إِلَّا عِنادًا وحِرانًا ، أَعْنِى : أَنِّى كُنْتُ أَقِفُ وَلا أَنْقادُ لها فى بَعْضِ الْأَحْيانِ .

٥ – نَتِيجَةُ الْبُخْلِ

وَكانَتْ « أُمُّ عِزْبِدَ » : تِلْكَ السَّيِّدَةُ النَّصَفُ – إِلى قَسْوَتِها – شَدِيدَةَ التَّقْتِيرِ (الْبُخْلِ) ، فَلا تُعْطِينِى مِنَ الْغِذاءِ إِلَّا مِقْدارَ ما يُقِيمُ أَوَدِى (يُزِيلُ تَعَبِى) ، مَعَ أَنَّها فِى سَعَةٍ مِنَ الرِّزْقِ ، وَخَفْضٍ (لِينٍ) مِنَ الْعَيْشِ . فَتَرَبَّصْتُ (انْتَظَرْتُ) بِها الدَّوائِرَ ، وَتَحَفَّزْتُ (تَهَيَّأْتُ لِلْوُثُوبِ) رَغْبَةً فى الانْتِقامِ .

وَذاتَ يَوْمٍ ، نَسِيَتْ أَنْ تَسْقِيَنِى وتُطْعِمَنِى ، مِنَ الصَّباحِ إِلى وَقْتِ الظُّهْرِ . فَلَمْ تَكَدْ تَبْتَعِدُ عَنِّى – وَكُنَّا قَدْ بَلَغْنا السُّوقَ – وَتَذْهَبُ لِبَعْضِ شَأْنِها ،

حَتَّى دَفَعَنِى الْجُوعُ والظَّمأُ إلى مِشَنَّةِ الْخُضَرِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَيْها مُضْطَرًّا ، وَأَكَلْتُ ما تَحْوِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْكُرُنْبِ .

وَلَمْ أَكَدْ أَنْتَهِي مِنَ الْكُرُنْبَةِ الْأَخِيرَةِ حَتى عادَتْ « أُمُّ عِزْبِدَ » فَلَمَّا رأَتْ ما حَلَّ بِها مِنَ الْخَسارَةِ ، صَرَخَتْ مُوَلْوِلَةً ، كأَنَّما لدغَتْها ذاتُ الْفَقارِ (الْعَقْرَبُ) بِزُباناها (والزُّبانَى : قَرْنُ الْعَقْرَبِ) وأَسْرَعَتْ « أُمُّ عِزْبِدَ » إلَىَّ تَتَوَعَّدُنِي بِالْوَيْلِ ، وَتُنْذِرُنِي بِالْهَلاكِ .

٦ — عِقابُ اللَّئِيمِ

واشْتَدَّتْ حَيْرَتى وارْتباكى حينَ رأَيْتُها مُقْبِلَةً عَلَيَّ بِعَصًا غَلِيظَةٍ ، وَهِيَ تَنهالُ (تَتابَعُ) عَلَيَّ ضَرْبًا وَشَتْمًا ، وَتُقْسِمُ لَتَقْتُلَنِّي جَزاءَ ما اقْتَرَفْتُ مِنْ إِثْمٍ (ذَنْبٍ) كَبِيرٍ ، وتَكِيلُ — مِنَ السِّبابِ والشَّتائِمِ وَعِباراتِ التَّحْقِيرِ لى وَلِأَبْناءِ جِنْسِيَ الأَقْرَبِينَ والْأَبْعَدِينَ — ما لَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ لِي عَلَى بالٍ .

فَذَكَرْتُ — حِينَئِذٍ — كَلامًا سَمِعْتُهُ مِنْ صَدِيقٍ لِوَلَدِ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ ، اسْمُهُ : « هِشامٌ » وَهُوَ طالِبٌ مِنْ أَذْكِياءِ الطُّلَّابِ . وَلَسْتُ أُغالِي إذا قُلْتُ : إِنَّهُ أَذْكَى مِنْ كَثِيرٍ مِنْ نُجَباءِ الْحَمِيرِ الَّذِينَ عَرَفْتُهم فى حَياتى . وَكانَ هٰذا

الطَّالِبُ يَتْلُو كَلامًا جَمِيلًا مِنْ كِتابِ الْمَحْفُوظاتِ ، ويُنْشِدُهُ مُعْجَبًا بِمَعْناهُ ، حَتَّى رَوَيْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَوْلُ « الْمُتَنَبِّي » : أَحَدِ حُكَماءِ الْإِنْسِ وَشُعَرائِهِم الْمُجِيدِينَ :

« إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدا »

٧ — ثَمَنُ الْجُحُودِ

فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِي ، والانْتِقامِ مِنْ « أُمِّ عِزْبِدَ » لِما أَلْحَقَتْهُ مِنَ الْإِهانَةِ بِأَبْناءِ جِنْسِي . وَرَفَسْتُها رَفْسَةً قَذَفَتْ بِها إِلَى الْأَرْضِ ، وأَلْقَتْ بِها فى غَيْبُوبَةٍ . ما أَحْسَبُها أَفاقَتْ مِنْها بَعْدَ ذٰلِكَ . وَكانَ هٰذا جَزاءً وِفاقًا . فَلَوْ أَنَّها شَكَرَتْ لِي حُسْنَ خِدْمَتِي ، ولَمْ تَنْسَ أَنْ تُقَدِّمَ لِي طَعامِي وَشَرابِي ، لَظَلِلْتُ لَها — ما حَيِيتُ — عَبْدًا شَكُورًا .

٨ — فِي الْمَحَفَّةِ

واشْتَغَلَ مَنْ فِي السُّوقِ بِإِسْعافِ « أُمِّ عِزْبِدَ » . وَرَأَيْتُها فُرْصَةً لِلْهُرُوبِ ، وَما زِلْتُ أَجْرِي حَتَّى بَلَغْتُ الدّارَ . فاسْتَقْبَلَنِي أَبْناؤُها وَزَوْجُها مَذْهُوشِينَ . وَتَساءَلُوا عَمَّا لَحِقَ بِصاحِبَتِي ، وكَيْفَ رَجَعْتُ بِغَيْرِها .

وانْقَسَمَتْ آراؤُهُمْ — في أمْري — واخْتَلَفَتْ!

وَبَعْدَ قَليلٍ رَأَوْا صاحِبَتي وَهِيَ في حالٍ يُرْثَى لَها مِنَ الْأَلَمِ والضَّعْفِ، وَقَدْ حُمِلَتْ في مِحَفَّةٍ (والْمِحَفَّة: مَرْكَبٌ لِلنِّساءِ كالْهَوْدَجِ، إلَّا أنَّها لا قُبَّةَ لَها). وَسَمِعْتُ أوْلادَها يَتَوَعَّدُونَني بالْقَتْلِ. وكانَ أبُوهُمْ يَقُولُ لَهُمْ: «عاقِبُوهُ كَما تَشاؤُونَ. ولٰكِنِ احْذَرُوا أنْ تَقْتُلُوه. وإلَّا ضاعَ ثَمَنُهُ عَلَيْنا بِلا طائِلٍ (بِغَيْرِ فائِدَةٍ).»

٩ — في الْغابَةِ

فَرَأَيْتُ الْحَزْمَ في الْفِرارِ. وَما زِلْتُ أعْدُو (أجْري) — جُهْدَ طاقَتي — حَتَّى غِبْتُ عَنْ أبْصارِهِمْ. فَلَمَّا اطْمَأْنَنْتُ إلى السَّلامَةِ، وَأَمِنْتُ شُرُورَهُمْ وَأَذِيَّتَهُمْ، واصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغْتُ أجَمَةً فِيها جَدْوَلٌ صافٍ مِنَ الْماءِ. فَأَكَلْتُ مِنْ حَشائِشِ الْأَرْضِ، وَشَرِبْتُ مِنْ مائِها النَّميرِ (النَّاجِعِ الزَّاكي). ثُمَّ أسْلَمْتُ أجْفاني لِلنَّوْمِ حَتَّى لاحَ (ظَهَرَ) الْفَجْرُ.

١٠ — بَناتُ وازِعٍ

فَشَعَرْتُ — في هٰذِهِ الْغابَةِ — بالطُّمَأْنينَةِ، بَعْدَ أنْ أمِنْتُ أذِيَّةَ تِلْكَ

الْأُسْرَةِ الْقاسِيَةِ الْقُلُوبِ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدي (لَمْ يَخْطُرْ بِبالي) أنَّ كِلابَها قَدِ اقْتَفَتْني (تَتَبَّعَتْني) واهْتَدَتْ بِآثارِ أقْدامي إلى الْمَكانِ الَّذي يَمَّمْتُهُ (قَصَدْتُهُ) فَلَمَّا سَمِعْتُ نُباحَها أدْرَكْتُ الْخَطَرَ الَّذي يَدْهَمُني (يَغْشاني) إذا تَلَكَّأْتُ (أبْطَأْتُ وَتَوَقَّفْتُ)
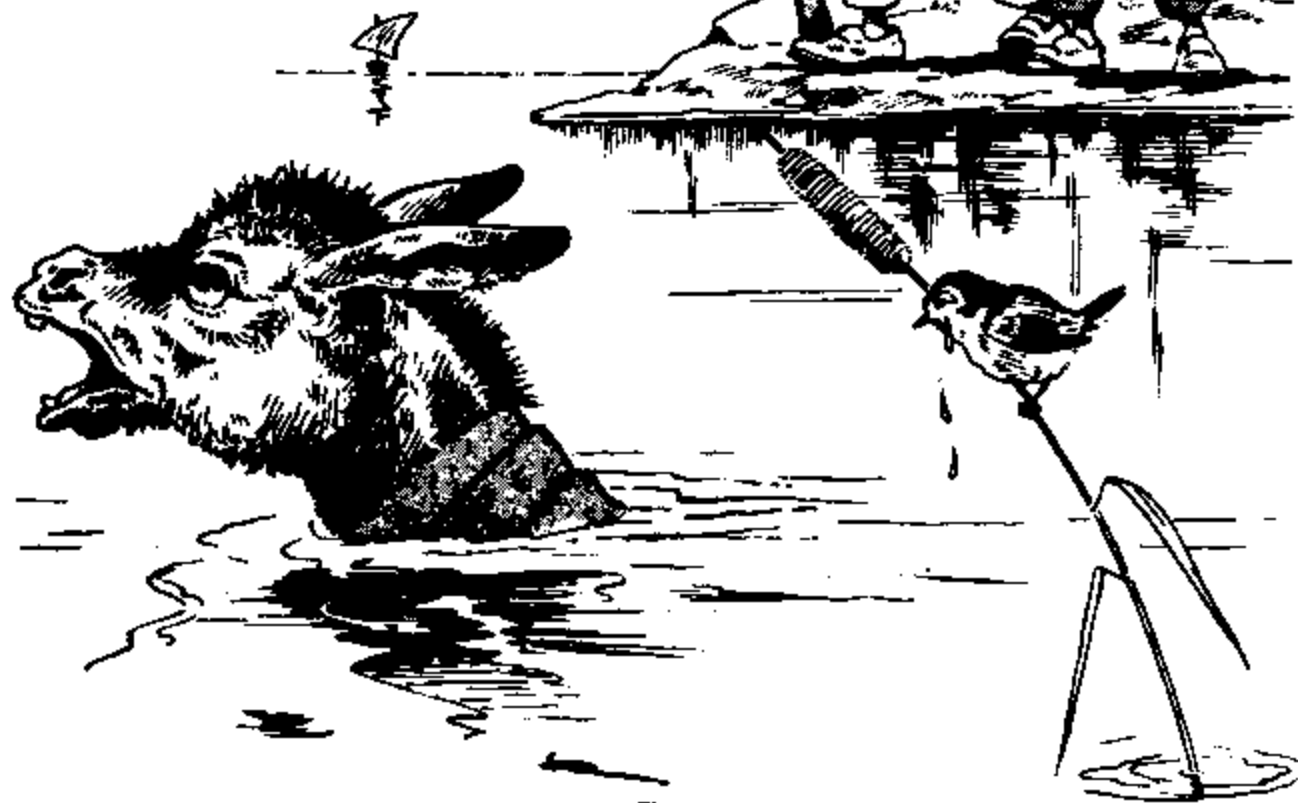
في الْهَرَبِ. فَأَسْرَعْتُ إلى جَدْوَلٍ قَريبٍ مِنَ الْغابَةِ، فَسَبَحْتُ (عُمْتُ)

فِيهِ حَتَّى تَنْقَطِعَ آثارُ أقدامِي ، فلا يَهْتَدِيَ قَصَّاصُو الأثَرِ إليْها . وسَمِعتُ صَوْتَ أبْناءِ « أمِّ عِزْبِدَ » وَهُمْ يَتَصايَحُونَ غاضِبِينَ ، وَيَقُولُ أحَدُهُمْ لِلْكِلابِ : « هَلُمَّ – يا بَناتِ وازِعٍ – فمَزِّقْنَ لَحْمَ حِمارِنا الشَّرِسِ الأثِيمِ (المُذْنِبِ) ، وأحْضِرْنَهُ إليَّ لأرْوِيَ دِرَّتِي (سَوْطِي) مِنْ دَمِهِ ، جَزاءَ ما اقْتَرَفَ مِنْ كَبائِرِ الذُّنُوبِ .

١١ – اختلافُ الظُّنُونِ

فتأكَّدَ (ثَبَتَ) لِي – حِينَئِذٍ – أنَّ أحْقادَهُمْ عَلَيَّ لا تَزالُ نامِيَةً ، وَأنَّهُمْ لَنْ يَقْنَعُوا – فِي مُعاقَبَتِي – بِغَيْرِ إهْلاكِي وَتَقْطِيعِ أوْصالِي . فَحَفَزَنِي ذلِكَ إلَى مُضاعَفَةِ جُهْدِي فِي السِّباحَةِ . وَما زِلْتُ سابِحًا حَتَّى انْقَطَعَتْ أصْواتُ الكِلابِ ، وَأصْبَحْتُ بِمَأْمَنٍ مِنْ غَدْرِهِمْ وَتَنْكِيلِهِمْ بِي . فَخَرَجْتُ مِنَ القَناةِ ، ثُمَّ واصَلْتُ السَّيْرَ عَلَى الشَّطِّ الآخَرِ مِنْها حَتَّى بَلَغْتُ مَرْجًا فَسِيحًا ، فِيهِ مَرْعًى خَصِيبٌ حافِلٌ بِالْبِرْسِيمِ الشَّهِيِّ . وَقَدْ عَدَدْتُ أكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ ثَوْرًا تَرْعَى فِيهِ . فانْتَحَيْتُ جانِبًا مِنْهُ وَأكَلْتُ ما شِئْتُ ، حَتَّى – إذا حَلَّ المَساءُ – سَمِعْتُ رَجُلًا يُحَذِّرُ صاحِبَهُ مِنْ تَرْكِ الثِّيرانِ فِي العَراءِ

(فِي الخَلاءِ) ، حَتَّى لا تَتَعَرَّضَ لِخَطَرِ الذِّئابِ الَّتِي افْتَرَسَتْ حِمارَ « أمِّ عِزْبِدَ » .

وَسَمِعْتُ الآخَرَ يَقُولُ لَهُ : « لَقَدْ عِشْتُ عُمْرًا طَوِيلًا فِي هٰذِهِ النّاحِيَةِ فَلَمْ أسْمَعْ بِذِئْبٍ واحِدٍ دَخَلَها ، وَما أظُنُّ إلّا أنَّ أوْلادَ « أمِّ عِزْبِدَ » قَتَلُوهُ – انْتِقامًا لِأُمِّهِمْ مِنْهُ – ثُمَّ أذاعُوا بَيْنَ المَلَإِ أنَّ الذِّئابَ قَدْ خَطِفَتْهُ . »

فَزادَنِي هٰذا الحَدِيثُ اطْمِئْنانًا ، لِأنَّنِي – فِيما أعْلَمُ – أخْبَرُ وَأعْرَفُ مِنْ كُلِّ أحَدٍ ، بِأنَّ حِمارَ « أمِّ عِزْبِدَ » لا يَزالُ عَلَى قَيْدِ الحَياةِ ، وَأنَّ الذِّئابَ لَمْ تَرَهُ وَلَمْ يَرَها ، وَلا عَرَفَتْهُ وَلا عَرَفَها قَطُّ .

١٢ – فِي حَقْلِ البِرْسِيمِ

وهٰكذا نِمْتُ فِي حَقْلِ البِرْسِيمِ العالِي ، وَأسْلَمْتُ جَفْنَيَّ لِلْكَرَى (أغْمَضْتُ عَيْنَيَّ لِلنَّوْمِ) . وَقَدْ أخْفَتْنِي عِيدانُ البِرْسِيمِ الطَّوِيلَةُ عَنْ كُلِّ عَيْنٍ .

وَما زِلْتُ نائِمًا حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ . فاسْتَيْقَظْتُ – وَما كِدْتُ أُتِمُّ فُطُورِي – حَتَّى سَمِعْتُ نُباحًا يَنْبَعِثُ مِنْ كِلابِ الخَفَرِ الَّتِي تَحْرُسُ

الثِّيرانَ فِي أثناء رَعْيِها. وكانَتِ الثِّيرانُ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ حَظِيرَتِها. وَخَشِيتُ أنْ أُعَرِّضَ نَفْسِيَ لِما لا تُحْمَدُ عُقْباهُ! فانْسَلَلْتُ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى بَلَغْتُ غابَةً بَعِيدَةً عَنْ هٰذا الْمَرْجِ الْخَصِيبِ، حَيْثُ بَقِيتُ ناعِمَ الْبالِ، أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ مِنَ الزَّمانِ.

١٣ — العجوزُ الوادِعةُ

وَجاء فَصْلُ الْبَرْدِ، فَجَفَّتِ الْحَشائِشُ الْمُخْضَرَّةُ، وَغاضَ الْماء (قَلَّ وَنَقَصَ)، وَأَصْبَحْتُ مُعَرَّضًا لِأَخْطارِ الْجُوعِ والظَّمَإِ والْبَرْدِ. وَشَعَرْتُ بِوَحْشَةِ الْعُزْلَةِ، وَسَئِمْتُ الْوَحْدَةَ، فَآثَرْتُ (اخْتَرْتُ) الذَّهابَ إِلَى الْقُرَى، والتَّعَرُّضَ لِأَذِيَّةِ النَّاسِ وَمَكايِدِهِمْ، عَلَى الْهَلاكِ جُوعًا وعَطَشًا فِي تِلْكَ الْغابَةِ النَّائِيَةِ (الْبَعِيدَةِ).

فَذَهَبْتُ أَعْتَسِفُ (أَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ هُدًى) حَتَّى بَلَغْتُ إِحْدَى الْقُرَى. فَرَأَيْتُ عَجُوزًا جالِسَةً أمامَ دارِها — وَهِيَ تَغْزِلُ — وَقَدْ بَدَتْ عَلَى سِيماها (مَرْآها) أَماراتُ الْوَداعَةِ وَطِيبِ النَّفْسِ. فَيَمَّمْتُ (قَصَدْتُ) نَحْوَها، حَتَّى إذا دانَيْتُها (قارَبْتُها) وَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى كَتِفِها. فَظَهَرَ عَلَيْها

شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ. وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما اطْمَأَنَّتْ وَأَخْلَدَتْ إِلَيَّ بِالثِّقَةِ، حِينَ رَأَتْنِي ساكِنًا هادِئًا. فَتَبَدَّلَ ارْتِيابُها (شَكُّها) ثِقَةً، وخَوْفُها اطْمِئْنانًا. وأَقْبَلَتْ عَلَيَّ تُوَسِّينِي (تُوصِينِي بالصَّبْرِ) وتُرَبِّتُ وَجْهِي قائِلَةً: «لَقَدْ شاخَ حِمارِي «دُكَيْنٌ» وَأَسْلَمَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ إلى الْهَلاكِ، فَماتَ مَأْسُوفًا عَلَيْهِ، وَتَعَطَّلَتْ أَعْمالِي مُنْذُ أَيَّامٍ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الذَّهابَ إلى السُّوقِ، لِبَيْعِ ما لَدَيَّ مِنَ الْخُضَرِ وَالْبَيْضِ والزُّبْدِ. ولٰكِنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَلُطْفَهُ أَدْرَكانِي، فَبَعَثا إِلَيَّ بِهٰذا الْحِمارِ الْوَدِيعِ. فَلَأَبْحَثْ أَوَّلًا عَنْ أَصْحابِهِ لِأَشْتَرِيَهُ مِنْهُمْ، وَإِلا أَبْقَيْتُهُ عِنْدِي حتَّى أَهْتَدِيَ إلَى مالِكِيهِ.»

١٤ — مُداعَبَةُ الحفيدِ

وَكَأَنَّما سَمِعَ حَفِيدُها شَيْئًا مِنْ حَدِيثِها مَعِي، فَخَرَجَ مِنَ الدَّارِ يَسْأَلُها عَنْ أَمْرِي، فَأَخْبَرَتْهُ بِجَلِيَّةِ الْأَمْرِ (بِحَقِيقَةِ الْخَبَرِ). وَكانَ الطِّفْلُ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ، فاسْتَأْذَنَ جَدَّتَهُ فِي مُداعَبَتِي (مُمازَحَتِي) فَقالَتْ لَهُ: «يَظْهَرُ أَنَّهُ حِمارٌ وَدِيعٌ، وَلٰكِنَّنا لا نَسْتَطِيعُ الاطْمِئْنانَ إلَيْهِ قَبْلَ أَنْ نُجَرِّبَهُ. فاقْتَرَبْتُ مِنَ الطِّفْلِ، وَلَحَسْتُ يَدَهُ مُتَرَفِّقًا وَلَبِثْتُ — حَيْثُ أَنا — ساكِنًا لا أَتَحَرَّكُ. فازْدادَ اطْمِئْنانُ الْجَدَّةِ وحَفِيدِها إِلَيَّ.

١٥ — السُّنُونَ الأَرْبَعُ

ثُمَّ قالَتِ الْجَدَّةُ لِحَفِيدِها «عِصامٍ» : «اذْهَبْ إلَى السُّوقِ وَطُفْ بِهِ أَرْجاءَ الْقَرْيَةِ (نَواحِيَها) وبُيُوتَها . فَإِنْ كانَ لَهُ صاحِبٌ فَسَلِّمْهُ إلَيْهِ ، وَإلَّا فَعُدْ (ارْجِعْ) بِهِ إلَيْنا ، لِنَرَى ماذا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ ! »

فَمَشَى «عِصامٌ» أَمامِي ، وَمَشَيْتُ خَلْفَهُ . ثُمَّ حَلا لَهُ الرُّكُوبُ ، فَلَمْ يَجِدْ مِنِّي غَيْرَ الْوَداعَةِ . وطافَ بِي أَنْحاءَ الْقَرْيَةِ ، وَسَأَلَ كُلَّ مَنْ فِيها ، فَلَمْ يَعْثُرْ لِي عَلَى صاحِبٍ . وَبَقِيتُ عِنْدَهُمْ نَحْوَ سَنَواتٍ أَرْبَعٍ . وَقَدْ سَعِدْتُ بِهِمْ — كَما سَعِدُوا بِي — وَقَنِعْتُ مِنْ زادِهِمْ — فِي الصَّيْفِ — بِما لَدَيْهِمْ مِنَ الْفَضَلاتِ الَّتِي لا يَأْكُلُها الْبَقَرُ وَالْخَيْلُ : مِنَ الْحَشائِشِ وَقُشُورِ الْخُضَرِ . وفي الشِّتاءِ بِحُفَنٍ مِنَ الشَّعِيرِ ، أَظْفَرُ بِها حَفْنَةً بَعْدَ أُخْرَى (والْحَفْنَةُ : مِلْءُ الْكَفِّ) ، وأَشْتاتٍ مِنْ وَرَقِ الْكُرُنْبِ ، وبَقايا ما يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ، مِنْ قِشْرِ الْبَطاطِسِ وَالْكُرّاثِ ؛ وَما إلَى ذٰلِكَ مِنَ النُّفاياتِ (مِنْ رَدِيءِ الأَشْياءِ) .

وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ ما أَشْكُوهُ مِنْ هٰذِهِ الْحَياةِ الْجَدِيدَةِ إلَّا شَيْءٌ واحِدٌ ،

هُوَ : اضْطِرارُ سَيِّدَتِي — بِسَبَبِ فَقْرِها — إلَى أَنْ تُعِيرَنِي لِبَعْضِ الصِّبْيَةِ ، لِيَتَنَزَّهُوا فِي مُقابَلَةِ ما يَدْفَعُونَ لَها مِنَ الأَجْرِ . وَلَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَعْضِهِمْ شَيْئًا مِنَ الإِعْناتِ (الْمَشَقَّةِ والْجُهْدِ وَالشِّدَّةِ) بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ .

١٦ — الْجِسْرُ الْمُتَهَدِّمُ

وَما أَنْسَ لا أَنْسَ يَوْمًا اسْتَأْجَرَنِي — مَعَ خَمْسَةٍ مِنْ رِفاقِي (صِحابِي) — سِتَّةُ أَوْلادٍ ، لِيَتَنَزَّهُوا بِنا فِي الْحُقُولِ وَالْمَراعِي . وَتَسابَقْنا ، فَكُنْتُ أَسْبَقَ الصِّحابِ ، وَأَسْرَعَهُنَّ جَرْيًا ، حَتَّى بَلَغْنا جِسْرًا مُتَداعِيًا (مُتَهَدِّمًا) ، فَوَقَفْتُ عَنِ السَّيْرِ حَتَّى لا أَهْوِيَ (لا أَسْقُطَ) بِراكِبِي فِي الْماءِ . فَانْهالَ عَلَيَّ ذٰلِكَ الصَّبِيُّ الْغَبِيُّ بِعَصاهُ يَسْتَحِثُّنِي (يَسْتَعْجِلُنِي) بِها عَلَى السَّيْرِ ، فَلَمْ أَزْدَدْ إلا حُرُونًا . وحاوَلْتُ أَنْ أُعَبِّرَ لَهُمْ عَنِ الْخَطَرِ الَّذِي يَعْرِضُونَ لَهُ ، فَنَهَقْتُ ، وَهَزَزْتُ رَأْسِي وَذَيْلِي ، وَدَبَبْتُ بِقَوائِمِي عَلَى الأَرْضِ ، وَقَفَزْتُ عِدَّةَ مَرّاتٍ فِي الْهَواءِ . فَلَمْ يَفْطُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلى شَيْءٍ مِما أُرِيدُ ، وَلَمْ يَفْهَمُوا عَنِّي — لِغَباوَتِهِمْ — ما كُنْتُ أَعْنِيهِ (أَقْصِدُهُ) .

١٧ – نَجاةُ الغَرِيقِ

عَلى أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَكَشَّفُوا غَفْلَتَهُمْ
وَخَطَأَهُمْ ، حِينَ انْدَفَعَ بِحِمارِهِ طِفْلٌ غَبِيٌّ مِنْهُمْ
اسْمُهُ « الوَكْواكُ » لِيَجْتازَ الجِسْرَ . وَلَمْ يَكَدْ
يَفْعَلُ حَتَّى هَوَى (سَقَطَ) بِهِ إِلَى الماءِ . فَسَبَحَ (عامَ) الحِمارُ حَتَّى بَلَغَ
الشّاطِئَ ، وَأَشْرَفَ الصَّبِيُّ عَلى الغَرَقِ . وَصاحَ الأَوْلادُ مَذْعُورِينَ (خائِفِينَ) ،

وحاوَلُوا إِنْقاذَ « الوَكْواكِ » جاهِدِينَ . وكانَ أَحَدُهُمْ – وهُوَ ابْنُ صَيّادٍ –
يَحْمِلُ مَعَهُ – لِحُسْنِ الحَظِّ – شَبَكَةَ الصَّيْدِ إلى أَبِيهِ ، فَأَلْقاها عَلَى «الوَكْواكِ»
وَراحَ يَجْذِبُها – مَعَ رِفاقِهِ – لِيُنْقِذُوهُ مِنَ الغَرَقِ ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ
سَبِيلًا . وَخَشِيتُ أَنْ يَغْرَقُوا مَعَهُ ، فَنَحَّيْتُهُمْ (صَرَفْتُهُمْ عَنْهُ) . وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ،
فَشَدَدْتُ الشَّبَكَةَ بِأَسْنانِي إِلَى البَرِّ .

١٨ – عَهْدٌ لا يُنْسَى

فَأَدْرَكُوا بُعْدَ نَظَرِي حِينَ أَحْجَمْتُ عَنِ السَّيْرِ فَوْقَ ذَلِكَ الجِسْرِ
البالِي ، وَأَقْبَلُوا عَلَيَّ يَتَوَدَّدُونَ (يَتَحَبَّبُونَ) إِلَيَّ . مُعْتَذِرِينَ عَنْ فَرْطِ جَهالَتِهِمْ
(شِدَّةِ جَهْلِهِمْ) . ذَلِكَ عَهْدٌ (زَمَنٌ) لا أَنْساهُ . وَقَدْ مَرَّ بِي عَلَى عِلّاتِهِ (عَلَى
كُلِّ حالٍ) إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ ، كَما تَمُرُّ الأَحْلامُ .

١٩ – أَبْغَضُ الأَيّامِ

وَكانَ والِدُ الطِّفْلِ : « عِصامٍ » جُنْدِيًّا ، فَلَمّا عادَ إِلَى بَيْتِهِ آثَرَ أَنْ يَنْتَقِلَ
– بِأُسْرَتِهِ – مِنَ الرِّيفِ إِلَى المَدِينَةِ . واضْطُرَّ – حِينَئِذٍ – إِلَى بَيْعِي
لِبَعْضِ الأَهْلِينَ . وَكانَ صاحِبِي الجَدِيدُ يُرْهِقُنِي (يَحْمِلُنِي عَلَى ما لا أُطِيقُ) ،

وَيُكَلِّفُنِي ما لا أَسْتَطِيعُ ، وَلا يُبالِي ما أَنُوءُ بِهِ (ما يُعْجِزُنِي) مِنَ الأَثْقالِ .

فَتارَةً أَحْمِلُ السَّمادَ ، ومَرَّةً أَحْمِلُ أَكْداسًا لا أُطِيقُ حَمْلَها مِنْ مِشَنّاتِ الخُضَرِ والبَيْضِ والجُبْنِ – وَما إِلَى ذٰلِكَ – لِبَيْعِهِ .

وَكانَتْ أَيّامُ السُّوقِ أَبْغَضَ أَيّامِ حَياتِي ، لِأَنَّ صاحِبِي يَتْرُكُنِي – فِي أَثْنائِها – بِلا طَعامٍ ، مِنْ وَقْتِ الصَّباحِ إِلَى وَقْتِ الأَصِيلِ ، وَلا يَذْكُرُنِي إِلّا بَعْدَ أَنْ يَبِيعَ كُلَّ ما جَلَبَهُ (أَحْضَرَهُ) .

٢٠ – فِي بَعْضِ الحُفَرِ

وكانَ – فِي عُقُوقِهِ (جُحُودِهِ) وَنُكْرانِهِ لِلْجَمِيلِ ، وَنِسْيانِ حَقِّي عَلَيْهِ – يُذَكِّرُنِي بِـ « أُمِّ عِزْبَدٍ » : تِلْكَ السَّيِّدَةِ النَّصَفِ الَّتِي أَسْلَفْتُ الإِشارَةَ إِلَيْها . فاشْتَدَّ حِقْدِي عَلَى الرَّجُلِ الأَنانِيِّ (الذي لا يُحِبُّ إِلّا نَفْسَهُ) ، وَزَهِدْتُ فِي خِدْمَتِهِ . فَدَبَّرْتُ – لِلْخَلاصِ مِنَ العَناءِ (التَّعَبِ) – خُطَّةً بارِعَةً ، تُرِيحُنِي مِنَ الذَّهابِ إِلَى السُّوقِ . فلما دَنَتْ ساعَةُ الخُرُوجِ ، تَخَيَّرْتُ حُفْرَةً واسِعَةً فِي مَكانٍ قَصِيٍّ (بَعِيدٍ) مِنَ المَرْعَى ، يَكْتَنِفُها

(يُحِيطُ بِها) النَّباتُ ، فاخْتَبَأْتُ فِيها . وَحاوَلَ الزّارِعُ وَأَوْلادُهُ وَأَقارِبُهُ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَكانِي ، فَخابَ سَعْيُهُمْ .

٢١ – حِوارُ الأُسْرَةِ

وَسَمِعْتُهُمْ يَتَحاوَرُونَ (يُناقِشُونَ) فِي أَمْرِي . وقَدْ حَسِبَ (ظَنَّ) صاحِبِي أَنَّ لِصًّا سَرَقَنِي . وَخَشِيَ أَنْ تَضِيعَ مِنْهُ فُرْصَةُ السُّوقِ ، فَشَدَّ إِلَى مَرْكَبَتِهِ فَرَسًا قَوِيًّا يُدْعَى « ذا الْعُقّالِ » . وَصَبَرْتُ ساعَةً ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الحُفْرَةِ ، وَذَهَبْتُ مُيَمِّمًا (قاصِدًا) الدّارَ ، حَتَّى دانَيْتُها (قَرُبْتُ مِنْها) ، فَنَهَقْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي . فَأَسْرَعَ إِلَيَّ مَنْ فِي الدّارِ ، وَفَرِحُوا بِخَلاصِي مِنَ السّارِقِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيَّ مُبْتَهِجِينَ مُتَوَدِّدِينَ . وَلَمْ يَكَدْ سَيِّدُ الدَّسْكَرَةِ (صاحِبُ المَزْرَعَةِ) يَعُودُ إِلَى دارِهِ ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَيْهِ (أَخْبَرُوهُ) بِما عَرَفُوهُ مِنْ أَمْرِي . فَشاعَتِ البَهْجَةُ (الفَرَحُ) فِي نَفْسِهِ ، وتَطَلَّقَتْ أَسارِيرُهُ (خُطُوطُ جَبِينِهِ) ، وَبَحَثَ عَنْ كُلِّ ثُغْرَةٍ فِي سِياجِ الدَّسْكَرَةِ (سُورِ المَزْرَعَةِ) ، فَأَحْكَمَ سِدادَها ، حَتَّى لا يَسْرِقَنِيَ اللِّصُّ مَرَّةً أُخْرَى .

٢٢ — بَدْءُ الشَّكِّ

فَلَمَّا جاءَ يَوْمُ السُّوقِ التّالِيَةِ ، اخْتَبَأْتُ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ . وَأَعادُوا بَحْثَهُمْ عَنِّي — كما فَعَلُوا فِي الْمَرَّةِ السّابِقَةِ — فَلَمْ يَظْفَرُوا مِنْ بَحْثِهِمْ بِطائِلٍ (لَمْ يَحْصُلُوا مِنْهُ عَلَى فائِدَةٍ) . فَأَيْقَنَ صاحِبِي أَنَّنِي لَنْ أَعُودَ إِلَى الدّارِ — بَعْدَ هٰذِهِ الْمَرَّةِ — وَقالَ لِبَنِيهِ (لِأَوْلادِهِ) وَأَهْلِيهِ ، فِي لَهْجَةِ الْآسِفِ الْحَزِينِ :

« لَقَدْ أَفْلَتَ (هَرَبَ) مِنَ اللِّصِّ — فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى — فَتَرَبَّصَ بِهِ اللِّصُّ (انتَظَرَ بِهِ ، وَصَبَرَ عَلَيْهِ) حَتَّى أَوْقَعَهُ فِي حِبالَتِهِ (شَبَكَتِهِ) ، وَما أَظُنُّهُ يَنْجُو بَعْدَ ذٰلِكُمْ أَبَدًا .

فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنَ الْحُفْرَةِ ، ظَلِلْتُ أَرْعَى الْحَشائِشَ فِي الْمَزْرَعَةِ حَتَّى وَقَعَتْ أَبْصارُهُمْ (أَنْظارُهُمْ) عَلَيَّ ، فَلَمْ يَهَشُّوا إِلَيَّ — فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ — وَلَمْ يَبَشُّوا (لَمْ يَفْرَحُوا) . وَبَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى سِيماهُمْ (ظَهَرَتْ عَلَى مَرْآهُمْ) وَخامَرَهُمُ الشَّكُّ فِي أَمْرِي ، فَضاعَفُوا مِنْ يَقَظَتِهِمْ ، وَضَيَّقُوا عَلَيَّ بِمُراقَبَتِهِمْ حَتَّى لا أُخادِعَهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

٢٣ — افْتِضاحُ السِّرِّ

فلما جاءَ يَوْمُ السُّوقِ ، وَاخْتَبَأْتُ فِي الْحُفْرَةِ — عَلَى عادَتِي — هالَنِي (خَوَّفَنِي وَفَزَّعَنِي) ما سَمِعْتُهُ مِنْ صَيْحاتِ سَيِّدِي ، وَمِنْ نُباحِ كَلْبِهِ ، وَهُوَ يُغْرِيهِ بِي ، وَيَحْفِزُهُ فِي أَثَرِي ، وَيُوصِيهِ بِأَنْ يُمَزِّقَ جِلْدِي وَلَحْمِي ، حَتَّى يُخْرِجَنِي مِنَ الْحُفْرَةِ . وَرَأَيْتُ كَلْبَهُ : « ابْنَ وازِعٍ » يُلَبِّي أَمْرَهُ ، فَيُنْحِي عَلَى جِسْمِي عَضًّا وَتَمْزِيقًا فَلَمْ أَرَ بُدًّا (لَمْ أَجِدْ مَفَرًّا) مِنَ الْخُرُوجِ .

٢٤ — عِقابُ الهارِبِ

وَما كِدْتُ أَفْعَلُ ، حَتَّى تَلَقّانِي سَيِّدِي بِدِرَّتِهِ (ضَرَبَنِي بِسَوْطِهِ) ، فَأَلْهَبَ جِسْمِي . وَلَمّا شَفَى غَلِيلَهُ (غَيْظَهُ) مِنِّي أَعادَنِي إِلَى الزَّرِيبَةِ . وَساءَ ظَنُّهُ بِي — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ — وَأَحْفَظَهُ عَلَيَّ ما فَعَلْتُ (جَعَلَهُ يَحْقِدُ) ، فَتَمادَى (اسْتَمَرَّ) فِي إِهانَتِي (إِذْلالِي) وَتَحْقِيرِي وَالْإِزْراءِ بِي (تَنَقُّصِي) .

٢٥ — مُباراةٌ فِي العِنادِ

فَلَمْ يَزِدْنِي بِقَسْوَتِهِ إِلَّا تَمادِيًا فِي العِنادِ وَالْغَيْظِ . فَأَجْمَعْتُ أَمْرِي عَلَى الانْتِقامِ . وَأَقْسَمْتُ لَأُنَغِّصَنَّ عَلَيْهِمْ عَيْشَهُمْ (لَأُكَدِّرَنَّ حَياتَهُمْ) كَما نَغَّصُوا

عَلَيَّ عَنَتِى ، ولأُشْقِيَنَّهُمْ بِى كما أَشْقَوْنِى بِهِمْ (لَأَجْلُبَنَّ عَلَيْهِمُ الشَّقاء ، كما جَلَبُوهُ عَلَيَّ) . فَلَمْ أَتْرُكْ — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ — فُرْصَةً تَسْنَح (تَعْرِضُ) لِلتَّنْكِيلِ بهم (لِإِيذائِهِمْ) . إلا انتهزْتُها ، وَأَسْرَعْت إلَيْها . فَلَمْ آلُ جُهْدًا فِى تَخْرِيب مَزْرَعَتِهِمْ وَإِفْسادِ حَدِيقَتِهِمْ وَأَكْلِ شُجَيْراتِها ، وَالْتِهامِ ثَمَراتِها ، وَتَقْتِيلِ أرانِبِها وَدَجاجِها ، وَرَفْسِ خِرْفانِها وَنِعاجِها ، وَإِلْقاء كُلِّ مَنْ يَرْكَبُنِي مِنْ أَطْفالِهِمْ . حَتَّى ضَجِرُوا بِى ، وَيَئِسُوا مِنْ إِصْلاحِى . فَلَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً لِلْخَلاصِ مِنْ شُرُورِى إِلَّا أَنْ يَبِيعُونِى ، وَيَشْتَرُوا بِثَمَنِى حِمارًا آخَرَ .

٢٦ — بِنْتُ السَّيِّدِ الجديدِ

ومُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ أَحْسَنُوا مُعامَلَتِى ، وَضاعفُوا الْعِنايَةَ بِأَمْرِى . فَمَنَحُونِى مِنَ الزَّادِ (الطَّعامِ) أَطْيَبَهُ ، وَأَراحُونِى مِنْ عناء العَمَلِ ، حَتَّى يَضْمَنُوا ثَمَنًا كَثِيرًا حِينَ يَبِيعُونَنِى . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنِ اسْتَرْدَدْتُ (اسْتَرْجَعْتُ) قُوَّتِى ، وَسَمِنْتُ بَعْدَ هُزالٍ ، وَقَوِيتُ بَعْدَ ضَعْفٍ . فَكَفَفْتُ عَنْ إِيذائِهِم حتى أَسْلَمُونِى إلى سَيِّدٍ آخَرَ .

وَكانَ لِذٰلِكَ السَّيِّدِ صَبِيَّةٌ جَمِيلَةٌ كَرِيمَةُ النَّفْسِ ، يَنْطَبِقُ فِعلُها عَلَى اسْمِها .

فَقَدْ كانتْ تُدْعَى « إِحْسانَ » ، وَلَوْ مُثِّلَ (لَوْ صُوِّرَ) الإِحْسانُ شَخْصًا لَكانَ إِيَّاها .

وَلَقِيتُ عِنْدَها حُظْوَةً (حَظًّا) ، فَأَحَبَّتْنِى ، وَعُنِيَتْ بِأَمْرِى ، وَلَمْ تَأْلُ جُهْدًا فِى الإِحْسانِ إِلَيَّ . وَأَبَتْ أَنْ تُنادِيَنِى إِلَّا بِأَحَبِّ الأَلْقابِ والكُنَى إِلَيَّ . فاختارَتْ لِى كُنْيَةً تُطْلِقُها عَلَيَّ ، لِتُكَرِّمَنِى بِها ، وتُكْبِرَ مِنْ شَأْنِى . فَصارَتْ تَدْعُونِى « أَبا تَوْلَبٍ » — مُنْذُ حَلَلْتُ عِنْدَها — وَهِيَ أَحَبُّ كُنْيَةٍ يَمْتَزُّ بِها جِنْسُنا النَّافِعُ الكَرِيمُ : مِنْ بَناتِ « شَحَّاجٍ » وَ « زِيادٍ » وَأَبْنائِهِما الأَعِزَّاء .

٢٧ — لَيْلَةُ الحَرِيقِ

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ هَنِيئَةً مُتَعاقِبَةً ، وَسَيِّدَتِى « إِحْسانُ » تَزِيدُنِى — مِنْ بِرِّها وَعَطْفِها — ما يُبْهِجُ نَفْسِى ، حَتَّى حدَث ما لَمْ يَكُنْ فِى الْحُسْبانِ (ما لَمْ يَخْطُرْ على البال ، ولم يَدُرْ بالظَّنِّ) . فَفِى ذاتِ لَيْلَةٍ ، انْتَبَهتُ (اسْتَيْقَظْتُ) مِنْ نَوْمِى مُتَفَزِّعًا مَذْعُورًا ، وَسَمِعتُ صَيْحاتٍ عالِيَةً تَنْبَعِثُ مُدَوِّيَةً فِى الفَضاء ، تُرَدِّدُ : « الْحَرِيقَ. الْحَرِيقَ . » وَرَأَيْتُ دُخانًا وَنارًا يَنْبَعِثانِ عَلَى مَسافةٍ غَيْرِ

بَعِيدَةٍ . فَتَفَزَّعْتُ وَهالَنِى (فَزَّعَنِى) ما أنا قادِمٌ عَلَيْهِ .

وَأَسْرَعْتُ إلى الْحَبْلِ — الّذِى شَدُّونِى بِهِ إلى الْمَرْبَطِ — فَقَرَضْتُهُ بِأَسْنانِى على عَجَلٍ . وحاوَلْتُ الْخُرُوجَ مِنَ الْحَظِيرَةِ (الزَّرِيبَةِ) . فَرَأَيْتُ بابَها مُغْلَقًا (مُقْفَلًا) . فَذَكَرْتُ — حِينَئِذٍ — سَيِّدَتِى « إحْسانَ » . وَدَهِشْتُ كَيْفَ تَنْسانِى فى وَقتِ الشِّدَّةِ ، وَتَذْكُرُنِى فى ساعاتِ الرَّخاءِ .

٢٨ — ساعةُ الخطرِ

وما كادَ يَمُرُّ بِبالِى هٰذا الْخاطِرُ حَتى رَأَيْتُها تَفْتَحُ بابَ الْحَظِيرَةِ ، وَتَخرُجُ بِى مُسْرِعَةً إلى الخَلاءِ . كَيْفَ أَنْسَى لها ذٰلِكَ الصَّنِيعَ (الْمَعْرُوفَ) ؟ لَقَدْ جازَفَتْ (خاطَرَتْ) بِنَفْسِها — فى سَبِيلِ إنْقاذِى — وَعَرَضَتْ حَياتَها لِلْهلاكِ ، لِتُنْجِيَنِى مِنْ عَذابِ الْحَرِيقِ . واشْتَدَّ اللَّهِيبُ ، واقْتَرَبَ الْخَطَرُ مِنْ كِلَيْنا ، وكادَتِ النّارُ تَكْتَنِفُنا (تُحِيطُ بِنا) مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

٢٩ — مِنْطَقَةُ اللَّهَبِ

وَأُغْمِىَ على الصَّبِيَّةِ — مِنْ هَوْلِ ما تَعَرَّضَتْ لَهُ — وكادَ يَخْنُقُها الدُّخانُ . فَلَمْ أَجِدْ مَناصًا (مَفَرًّا) مِنَ التَّشَبُّثِ (التَّعَلُّقِ) بِثِيابِها ، والقَبْضِ

بِأَسْنانِى على جِلْبابِها ، والْجَرْىِ بِأَقْصَى ما أَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ ، وَأَنا أَحْذَرُ — جُهْدَ طاقَتِى — أَنْ تَعْلَقَ النّارُ بِأَطْرافِ ثَوْبِها ، وَأَتَمَنَّى لَوْ فَدَيْتُها بِنَفْسِى مِنَ الْهَلاكِ .

٣٠ — النَّجاةُ من الْحريقِ

وَما زِلْتُ أَجْرِى حتّى اجْتَزْتُ — بِحَمْدِ اللهِ وَتَيْسِيرِهِ — مِنْطَقَةَ اللَّهَبِ ، وَوَضَعْتُها إلى جانِبِ جَدْوَلٍ مِنَ الْماءِ . فَلَمْ تَلْبَثِ الصَّبِيَّةُ أَنْ أَفاقَتْ مِنْ إغْمائِها ، وَشَكَرَتْ لِى ما أَسْدَيْتُ إلَيْها مِنْ صَنِيعٍ (ما قَدَّمْتُهُ لها مِنْ مَعْرُوفٍ) ، وَأَنا أَوَدُّ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْكَلامَ ، فَأَصُوغَ لها — ما هِىَ أَهْلُهُ مِنَ الثَّناءِ والشُّكْرِ — على ما أَسْلَفَتْ إلَىَّ مِنْ جَمِيلٍ لا أَنْساهُ ما حَيِيتُ .

٣١ — نَوْمٌ عَمِيقٌ

وَما زالَتِ النّارُ تَشْتَعِلُ ، حَتَّى أَتَتْ عَلَى كُلِّ ما تَحْوِيهِ الضَّيْعَةُ مِنْ دُورٍ وَحَظائِرَ (بُيُوتٍ وزَرائِبَ) .

وَكانَتْ لَيْلَةً هائِلَةً (مُخِيفَةً) . فَلَمْ تَلْبَثْ « إحسانُ » أَنْ نامَتْ عَلَى الْحَشائِشِ لِتَسْتَرِيحَ مِمّا بَذَلَتْهُ مِن عَناءٍ . ثُمَّ أَخَذَتْنِى سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ ،

وَبَعْدَ قليلٍ استَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ . وَما زِلْنا نائِمَيْنِ حتَّى لاحَ ضَوْءُ الْفَجْرِ ، فاسْتَيْقَظْتُ . وَرَأَيْتُ الصَّيْحاتِ قَدْ هَدَأَتْ والنِّيرانَ قَدْ خَمَدَتْ ، فَتَلَطَّفْتُ حتَّى أَيْقَظْتُ سَيِّدَتِي . فَلَمَّا أَفاقَتْ ذَهَبْنا مَعًا إلى والِدَيْها ، فابْتَهَجا لِنَجاتِها . وَنَسِيا ما أَلَمَّ بِهِما مِنَ الْخَسارَةِ ، وَكانا قَدْ يَئِسا مِنْ عَوْدَتِها إلَيْهِما ، وَحَسِباها ذَهَبَتْ طَعامًا لِلنَّارِ .
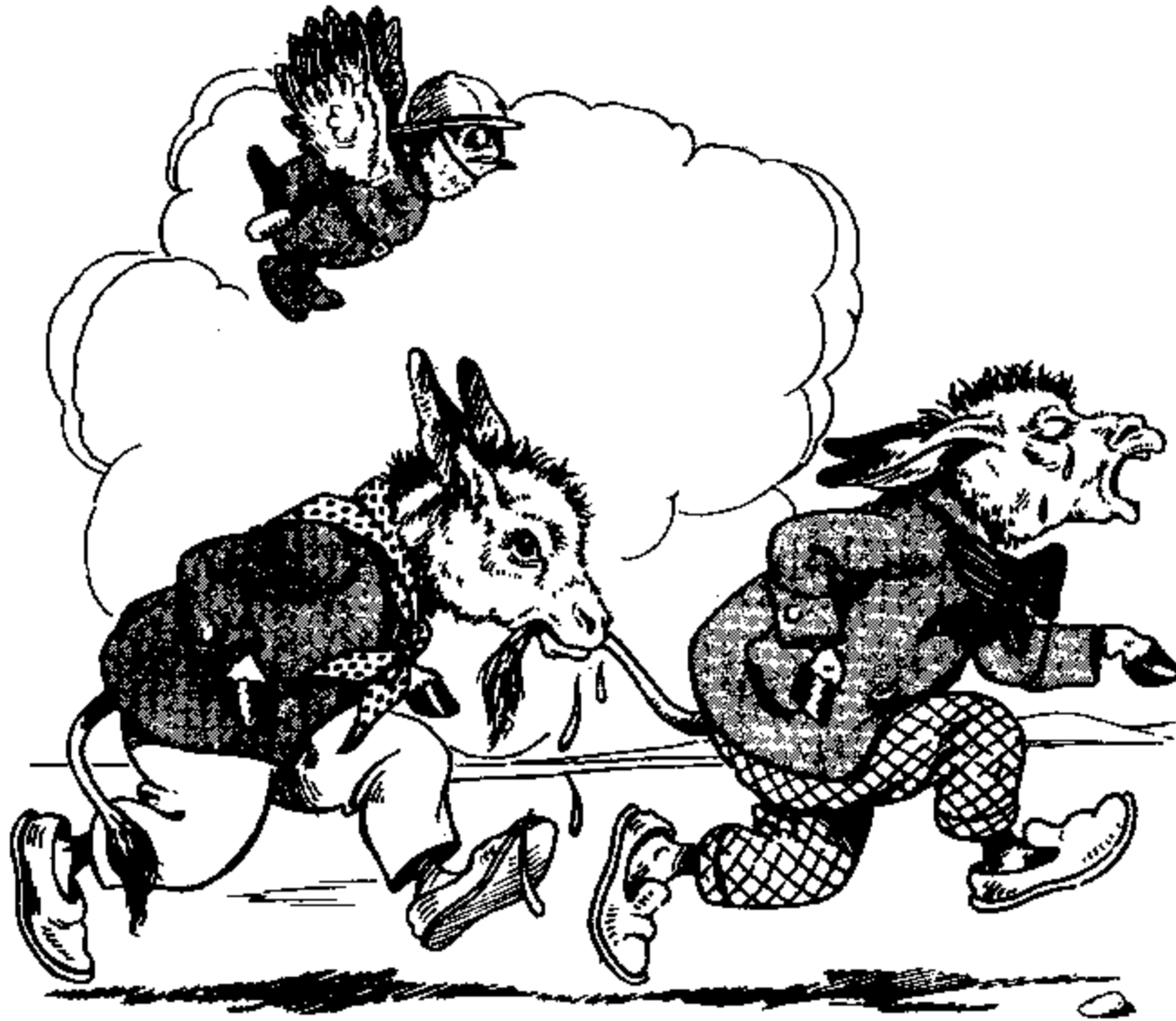
٣٢ — خَرابُ الضَّيْعَةِ

وكانَتْ هٰذِهِ الصَّبِيَّةُ ضَعِيفَةَ الْجِسْمِ ، تَنْتابُها الأَمْراضُ — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — وَقَدْ أَسْلَمَها الْجَهْدُ (شِدَّةُ التَّعَبِ) إلى الْحُمَّى . فاشْتَغَلَ أَهْلُها بِأَمْرِها ، وقَرَّرُوا الْعَوْدَةَ بها إلى الْمَدِينَةِ لِيُشْرِفَ الأَطِبَّاءُ عَلَى فَتاتِهِمْ ، وَيُعْنَوْا بِشِفائِها . وأَقْفَرَتْ (خَلَتْ) الضَّيْعَةُ مِنْ ساكِنِيها . ونَسُوا أَمْرِي ، فَلَمْ أَجِدْ لِي — في غَيْرِ الْغابَةِ — مَأْوًى ، حتَّى لا أَهْلِكَ عَطَشًا وَجُوعًا . وَهٰكَذا مَرَّتْ بِي ذِكْرَياتٌ كَثِيرَةٌ مُتَعاقِبَةٌ ، بَعْضُها مُؤْلِمٌ بَغِيضٌ ، وَبَعْضُها سارٌّ بَهِيجٌ .

٣٣ — مُباراةُ الْحَمِيرِ

وَما أَنْسَ لا أَنْسَ يَوْمَ السِّباقِ فِي بَعْضِ الْقُرَى . فَقَدِ اشْتَرَكْتُ فِي مُباراةٍ

لا يَقِلُّ مَنِ اشْتَرَكَ فِيها مِنَ الْحَمِيرِ عَنْ سِتَّةَ عَشَرَ . وَسَبَقْتُها جَمِيعًا ، حتَّى — إذا قارَبْتُ آخِرَ الشَّوْطِ — أَسْرَعَ إِلَيَّ حِمارٌ شَرِسٌ غَضُوبٌ ، فَنَفِسَ

عَلَيَّ ذٰلِكَ (حَسَدَنِي ، وَلَمْ يَرَنِي أَهْلًا لَهُ) . وَغاظَهُ ما كِدْتُ أَظْفَرُ بِهِ مِنْ شَرَفِ السَّبْقِ ، فَعَضَّ ذَيْلِي عَضَّةً كادَتْ تُذْهِلُنِي (تُنْسِينِي) . ولٰكِنَّنِي

— عَلَى فَرْطِ ما أحْسَسْتُهُ مِنْ أَلَمٍ — ضاعَفْتُ مِنْ سُرْعَتِي حَتَّى سَبَقْتُ كُلَّ مُنافِسٍ تَصَدَّى (تَعَرَّضَ) لِسِباقٍ .

٣٤ — شِجارٌ مَعَ كَلْبَيْنِ

وَرَأَيْتُ — ذاتَ يَوْمٍ — كَلْبَيْنِ كَبِيرَيْنِ يُطارِدانِ وَلَدًا مِنْ أَبْناءِ الْجِيرانِ ، وَهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يَتَسَلَّقَ شَجَرَةً قَرِيبَةً مِنْهُ لِيَنْجُوَ مِنْ أَذاهُما . فَعَضَضْتُ أَكْبَرَهُما

عَضَّةً أَوْشَكَتْ أَنْ تُودِيَ بِهِ (كادَتْ تُهْلِكُهُ) . وَرَأَيْتُ الثّانِيَ يُسْرِعُ إِلَى الطِّفْلِ ، فَيَجُرُّهُ بِأَسْنانِهِ مِنْ ثِيابِهِ . وَكانَ الطِّفْلُ يُحاوِلُ — حِينَئِذٍ — أَنْ يَتَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ ، فَأَمْسَكْتُ ذَيْلَهُ بِأَسْنانِي لِأُعْجِزَهُ عَنِ الْهَرَبِ ، ثُمَّ عَضَضْتُهُ فِي وَجْهِهِ عَضَّةً كادَتْ تَقْتُلُهُ .

فَشَكَرَ لِي ذٰلِكَ الصَّبِيُّ ما أَسْدَيْتُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ . وَقَصَّ عَلَى إِخْوانِهِ ما حَدَثَ ، فَازْدادَ حُبُّهُمْ إِيّايَ ، وَتَعَلُّقُهُمْ بِي ، مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

القِصَّةُ الرّابِعَةُ : جَبّارَةُ الغابَةِ

كلمـــات القصـــة

« تُثبَتُ — في هذهِ الصفَحاتِ — طائفةٌ مِنَ الكلماتِ التي مرّتْ بالقارئِ مُفسَّرةً ، ليَسْهُلَ عليهِ مُراجعتُها واستذكارُها ، متى شاء » .

شُخوصُ المَلهاة : أشخاصُ الكوميديا

برَّحَ بهِ التعبُ : آذاهُ أذًى شديدًا

إيقاظُك من سُباتِك : تنبيهُكَ من نومك

ظَلِلْنا نمرَحُ : اشتد فرَحُنا ونشاطُنا حتى جاوزا القَدْر

الجبلُ الشامخ : الشديد الارتفاع

كَرِشُهُ : مَعِدَتُهُ (والكَرِشُ — لِذِي الخُفِّ والظِّلْفِ وكل مُجْتَرّ — بمنزلة المَعِدة للإنسان)

واجمٌ : ساكتٌ عابسُ الوجهِ مُغتمٌّ

غائلةُ البردِ : شدّته المُهلكة

مثّلوا به : صنعوا به من السوء ما يلفت النظرَ

يستأثر بها : ينفردُ بها : يخصُّ نفسه بها

كاسفُ البالِ : سيّئُ الحال

خُيَلاؤهُ : إعجابه بنفسه وكبرياؤهُ

أمحَضَهُ الحبَّ : أخلصَ له الودَّ

اغتيابُهُ وتنقُّصُهُ : التحدث في غيبته بما يَعيبُهُ

الكلاليبُ : حدائدُ مُلتوية الرأس

لا قِبَلَ له به : لا قُدرةَ له عليه

المَناقِعُ : جمعُ مُستنقَعٍ ، أي : مكان يلتقي فيه الماء ويكثُرُ .

خبيرٌ بصيرٌ : عارفٌ غاية أمري حقَّ المعرفة

متكتِّزُ اللحمِ : لحمُهُ متجمعٌ متصلِّبٌ

لم تُسْدِ إلى أحدٍ : لم تُقدِّمْ له

فِناء الدارِ : الساحةُ التي أمامها

مصارعُهم وشيكةٌ : أيام ذبحِهم قريبةٌ

بلوتُ : جرَّبتُ واختبرتُ

لا يتأثّمون : لا يكفُّون عن الإثمِ

كادحٌ : جاهدٌ نفسَهُ في العملِ

يُوفِّرُ لنا السعادةَ : يُكثِّرُها لنا

سِياطٌ : جمعُ سَوْطٍ وهو : ما يُضْرَبُ به من جِلدٍ أو غيره

يحتثّني على العَدْوِ : يدعونني إلى سُرعةِ الجَرْيِ

وشِيبُ سَوطِهِ : طرَفُهُ

يرجّلون شعرَهُ : يمشطونَهُ

تريّثْ : تمهّلْ وانتظرْ

يتصايحون : يصيحُ بعضُهم ببعضٍ .

جادّةُ الأدبِ : طريقُهُ

تشجُو السامعين : تحزُنُهم

الليلُ الغاسِقُ : الشديدُ الظلام

الوثيرُ : الليّنُ الناعمُ

الدَّعَةُ : الهُدوءُ والسكينةُ

الظلامُ الحالكُ : الشديد السوادِ

كرَمُ عُنصرِهِ : طيبُ أصلِهِ

أصفيناهُ الودَّ : صدَقناهُ الإخاء

غمَرَهُ بأياديهِ : بالغَ في الإحسانِ إليهِ وأغدقَ عليه صنائعَهُ ونِعمَهُ

تربيتُ ظهورِهم : مسُّها باليدِ تحبُّبًا إليهم واستجلابًا لمودّتهم

أنقذَهُ من غائلةِ البردِ القارسِ : نجّاه من شدّتهِ المُهلكةِ .

أضناهُ : أسقمَهُ وأمرضَهُ

الوادِعةُ : الساكنةُ الهادئةُ

تشعَّثَ جلدُهُ : تفرّقَ شعرُهُ

نسَلَ الصوفُ : انتفشَ وسقط

أشتاتُ القشِّ : متفرّقاتُهُ

بلغَ من الكِبَرِ عِتيًّا : جاوزَ السنَّ المألوفة

هلكَ سَغَبًا : ماتَ جوعًا .

أعمالٌ جِسامٌ : عظيمةٌ خطيرةُ الشأنِ

هدأتِ الجلبةُ : سكنتِ الضجّةُ .

حالفَهُ السُّهادُ : صاحَبَهُ السهرُ

بقيتْ جاثمةً : لزمتْ مكانها فلم تتركه

الغلاظُ الأكبادِ : القُساةُ القلوبِ .

الشتاءُ القارسُ : الشديدُ البردِ

مغلوبٌ على أعصابِهِ : سريعُ الهِياجِ .

مِنْ عِتاقِ الْخَيْلِ : مِنَ الأفراسِ الـكريمة
حاوَلَ إمْكانَهُ : بَذَلَ جُهْدَهُ
فَرْطُ الإعْياء : شِدَّةُ التَّعَبِ .
النُّتوءاتُ : رُءوسُ الأخاديدِ .
الأُخْدُودُ : الشَّق
تُسَلَّفُ بِها الأرْضُ : تُسَوَّى بِها .
يُوَفِّرُ زادَهُ : يُكَثِّرُ قُوتَهُ .
فِي غَدِهِ : فِي الْيَوْمِ التَّالي .
حَفْنَةٌ : مِقْدارُ مِلْءِ الـكَفِّ .
يَحُشُّهُ : يَنْفضُ الترابَ عَنْهُ .
جِنُّ نَشاطِهِ : عُنْفُوانُهُ وَقُوَّتُهُ .
ما ناءَ بِهِ احْتِمالُهُ : ما لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ
الجَوُّ صَحْوٌ : سَماؤُهُ صافيةٌ لا غَيْمَ فيها .
يَرْقُدُ شَيْئًا : يَنامُ بَعْضَ الْوَقتِ .
غَذَتْهُ بِلِبانِها : رَبَّتْهُ بِلَبَنِها .
لَبِثَ شَيْئًا : مَكَثَ زَمَنًا قليلاً .
اسْتَمْرأَ دَرَّها : اسْتَطابَ لَبَنَها .
الدَّسِمُ : الـكَثيرُ السِّمَنِ .
الحافِرُ : الظِّلْفُ غَيْرُ الْمَشْقُوقِ .

الظِّلْفُ : الحافِرُ الْمَشْقوق .
الْبَسائِطُ : الْمَعْلوماتُ الأوَّلِيَّة .
تَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَة .
أنيابٌ : أسْنانٌ مُدَبَّبَةٌ .
يَقْضِمُ الْحَشائِشَ : يَكْسِرُها بِأطْرافِ أسْنانِهِ .
دَماثَةُ الْخُلُقِ : لِينُ الطَّبْعِ .
نَقاءُ السَّريرَةِ : صَفاءُ السِّرِّ الَّذي يُضْمِرُهُ الإنسانُ في نَفْسِهِ .
شَدَّ ما اخْتَلَفَ الْقِسْمُ : ما أبْعَدَ نصيب هذا مِن ذاك .
أحداثٌ : أحْوالٌ وشُئونٌ
دِخْلَتُهُ : ما يُخفيهِ في قرارةِ نفسه
تَفَرَّسْتُ : دَقَّقْتُ النظر
انسجامُ جسمه : انتظامُهُ واستواؤُهُ
الْغابِرَةُ : القديمةُ الْماضِيةُ
نَمَوْتُ : ازداد حجمُ جسمي
قَسْرًا : كُرْهًا واغتِصاباً

الوِهادُ : الأراضي الْمُنخفِضةُ
مزاولَتُهُ : عملُهُ والقيامُ بهِ
رأيتُهُ أوَّلَ وهْلَةٍ : رأيتُهُ أوَّلَ شَيْءٍ رأيتُهُ
أخْتَلِسُ بَعْضَ النظَراتِ : أخْتَطِفُها بسُرْعةٍ عَلَى غَفْلَةٍ
سارَ قُدُمًا : بلا التواء إلى الأمامِ
ناجٍ : خالِصٌ مِن الأذَى
أرْثي لحالِهِ : أرِقُّ وأعْطِفُ
الْمَعْدِنيُّونَ : الْمُشتغِلون باستِخراجِ الْمَعدِنِ
الْمَنْجَمُ : الْمَوضِعُ الذي يُستَخْرَجُ مِنهُ الْمَعادن
رشيقٌ : خفيفُ الحركةِ
هَمَسَ : تحدَّثَ بصوتٍ خفِيٍّ .
سَيِّدَةٌ نَصَفٌ : امرأةٌ وسَطٌ بينَ الحداثةِ والْمُسِنَّة
الصِّراطُ السَّوِيُّ : الطريقُ الْمُستقيمُ
لَمْ يَألُ جُهْدًا : لَمْ يُقَصِّرْ
أعَرِّجُ بها : أميلُ بها مِن جانبٍ إلى جانبٍ

يُقِيمُ أوَدَهُ : يُزيلُ تَعَبَهُ .
الْمِحَفَّةُ : مَرْكَبٌ للنساء كالْهَوْدَجِ ، إلا أنها لا قُبَّةَ لها
الْماءُ النَّميرُ : النَّاجِعُ الزَّاكي .
لَمْ يَدُرْ بخَلَدي : لم يخْطُرْ ببالي
اعْتَسَفَ : سارَ في الطريقِ على غيرِ هُدًى
تُؤَسِّيني : تُوَصِّيني بالصَّبر
جَلِيَّةُ الأمرِ : حقيقةُ الخبر
النُّفاياتُ : رديءُ الأشياء
الإعناتُ : الْمَشَقَّةُ والجَهْدُ والشِّدَّةُ
عَلَى عِلاَّتِهِ : عَلَى كلِّ حال .
يُرْهِقُهُ : يَحْمِلُهُ على ما لا يُطيقُ .
ما يَنُوءُ بِهِ : ما يُعْجِزُهُ .
يَتَحاوَرُونَ : يُناقِشُونَ .
سَيِّدُ الدَّسْكَرةِ : صاحبُ الْمَزْرَعَةِ .
أفْضَوْا إلَيْهِ : أخْبَرُوهُ .
تَرَبَّصَ بِهِ : انْتَظَرَ بِهِ وَصَبَرَ عَلَيْهِ .
لَمْ يَبْتَشُوا : لَمْ يَفْرَحُوا .
بَدَتْ عَلَى سِيماهُمْ : ظَهَرَتْ عَلَى مَرْآهُمْ .

لَمْ يَرَ بُدًّا : لم يجدْ مَفرًّا .
غاضَ الماء : غارَ فذهبَ في الأرض
لأُنغِّصَنَّ عيشَهُمْ : لأُكدِّرَنَّ حياتَهم
لأُشقينَّهُمْ بي ، كما أشقَوْني بهم :
لأجلبنَّ عليهم الشقاء كما جلبوهُ عليَّ

التَّنكيلُ بهم : إيذاؤهُمْ
ما لم يكن في الحُسبانِ : ما لم يخطُرْ على
البال ، ولم يَدُرْ بالظَّنِّ
نَفِسَهُ عليهِ : حسدَهُ ولم يرهُ أهلًا له
أوشكَتْ أنْ تودِيَ بهِ : كادتْ تُهلكهُ

زَعيمةٌ : كفيلةٌ
صَلَفٌ : كِبْرٌ
يأبَهُ : يهتمُّ
غضاضةٌ : ذِلَّةٌ
حُبٌّ جَمٌّ : كثيرٌ
قِسْطُهُ : نصيبُهُ
الرِّجْسُ : القذَرُ
مُتبطِّلٌ : متعطِّلٌ
نقهَرُ : نغلِبُ
بَغيًا : ظلمًا
أُدْنُ : اقتربْ
عدْوٌ : جَرْيٌ
اِلْبَثي : أُمْكُثي
سميحٌ : قبيحٌ

قاطبةً : جميعاً
أُباهي : أُفاخِرُ
شُهْدٌ : عَسلٌ
لا غرْوَ : لا عَجَبَ
يُرفِّهُ : يُخفِّفُ
دائبةٌ : مستمرَّةٌ
هالَهُ : فزَّعَهُ
الخَوَرُ : الضَّعفُ
صَخَبٌ : ضجَّةٌ
أنكرْتُهُ : جهلتُهُ
إجهادُهُ : إتعابُهُ
يُشِعُّ : ينشرُ شُعاعهُ
قِمَّةُ الجبلِ : أعلاهُ
عوَّرها : جعلها عوراء

شَرِهٌ : شديد الحِرْص
أُلفيكَ : أَلْقاكَ
أَجِدُكَ
أَجَلْتُ : أَدَرْتُ
لا يَفتُرُونَ : لا يَهدَأونَ
يكتنفُهُ : يُحيط بهِ
عُمِّرَ : طالتْ حياتُهُ
ضَرْعٌ : ثَدْيٌ
أظلافٌ : حوافِرُ
مُفْضٍ : مُحَدِّثٌ
وَمُخبِرٌ
حِوارٌ : مُناقشة
بحسْبِهِ : يكفيهِ .
التَّوَدُّدُ : التَّحبُّبُ .

الدَّسْكَرة : المزرعة .
مُضْنٍ : مُمرِضٌ .
أخلدُ : أسكُنُ .
يكدحُ : يجاهدُ .
لم يفطَنْ : لم ينتبهْ .
مُتخلِّفةٌ : متأخِّرةٌ .
العَناء : التَّعبُ .
يُجْدي : يُفيدُ .
الثَّرَى : الأرضُ .
مُدْيَةٌ : سِكِّينٌ .
يُساوِرُ : يُغالِبُ .
يَكُفُّ : يمتنعُ .
خارَتْ : ضعُفَتْ .
خَلَدُهُ : قلبُهُ .
وقَرَ : أثَّرَ .
التَّرْفيهُ : التَّخفيفُ .
يَرْكُلُ : يَرْفُسُ .
الضَّنُّ : البُخْلُ .
العَراء : الخلاء .

الأَناسيُّ : النَّاسُ .
الكَرَى : النَّومُ .
أَرِقَ : ذهبَ نومُهُ .
النَّائيةُ : البعيدةُ .
الدَّانيةُ : القريبةُ .
عُدْنَ : ارجِعْنَ .
المَلاذُ : الملجأُ .
يلوحُ : يبدُو
ثَمَّةَ : هناك
ناءٍ : بعيدٌ
رَدَحٌ : مُدَّةٌ
الشَّعثاء : المُفرَّقة
سيِّءٌ وجهُهُ : قَبُحَ
مُتجهِّمٌ : عابسٌ متغيِّرٌ
أَوْفَى : أشرفَ
أرتادُها : أسيرُ فيها
الوَعْرةُ : الصَّعبةُ
يُمارِسُ : يُعالجُ
ارتقاؤها : الصُّعودُ فيها

أرأفُ : أكثرُ رحمةً
التريُّثُ : الإبطاء .
حَسِبَ : ظنَّ .
بَيِّنٌ : واضحٌ .
نَقَمَ : كرِهَ وأنكرَ .
داناهُ : قرُبَ منهُ
مُتتاليةٌ : متتابعةٌ
راعَهُ : أفزعَهُ
جَسَدُهُ : جسمُهُ
أَهْوَى : نزلَ
أتروَّى : أتفكَّرُ
أبغي : أطلبُ
مُرتاعٌ : خائفٌ
مَرانةٌ : تمرينٌ
القِمَّةُ : رأسُ الجبلِ
سَلَفَتْ : مضتْ
الأشعثُ : المُفرَّقُ
سياجٌ : سورٌ
تُفضي إليهِ : تُخبِرُهُ

كابَدَ : قاسَى وعانَى
كَوارِثُ : مصائبُ
مُترَوٍّ : مُتأنٍّ مفكِّرٌ
يستقلُّها : يَرْكَبها
يُرهِقُها : يُجهِدها
أتانٌ : حِمارَةٌ
المُتَوَفَّوْنَ : المَيِّتُونَ
لا رَيْبَ : لا شَكَّ
ابْتَدَرَهُ : أسرَعَ إليْهِ
يَتمَتَّعُ : يَنْعَمُ
قَصِيَّةٌ : بعيدَةٌ .
لم يُحِرْ : لم يرُدَّ. لم يَرْجِع
بَدَتْ : ظَهَرَتْ .
ينتحِي : يقصِدُ .
دانَيْتُهُ : قارَبْتُهُ .
يَبْدُو : يَظْهَرُ .
انصرَمَ : انتهَى .
قارسٌ : شَدِيدٌ .
قاتِمٌ : مظلِمٌ

يُؤْثِرُنِي : يُفضِّلنِي
جَنَّ الليْلُ : أظْلَمَ
يُجَلِّلُهُ : يُغطِّيهِ
هَشَّتْ : فَرِحَتْ
الغابِراتُ : القَدِيماتُ
القُدامَى : القُدَماء
أغفَلَ : تَرَكَ
قَوائمُ : أقدامٌ
الغَزِيرُ : الكَثِيرُ
خَلِيقَةٌ : جَدِيرَةٌ .
أبْتَهِجُ : أفرَحُ
يَتَهافَتُ : يتَساقطُ .
مُتَوَدِّدٌ : مُتحَبِّبٌ .
وَثِيرٌ : لَيِّنٌ .
مُداعِبٌ : مُمازِحٌ .
يافِعٌ : شابٌّ ناشِئٌ
لا يَنِي : لا يَكْسَلُ
حَدِبٌ : تَعطُّفٌ
قَسامَة : حُسْنٌ

أدْناها : أقرَبُها
نَبالَةُ خُلُقِهِ : نَجابَتُهُ
مَحَضْناهُ : أخلَصْنا لهُ
الوَفِيرُ : الكَثِيرُ
الطَّارِقُ : الزائرُ
جَلِيَّةُ الخَبَرِ : حقيقتُهُ
تَستَحِثُّهُ : تَستَعجِلُهُ
أعْنِي : أقصِدُ
مذعورٌ : خائفٌ
عَهْدٌ : زَمَنٌ
جَلَبَ : أحضَرَ .
العَناءُ : التَّعَبُ .
قَصِيٌّ : بعيدٌ .
يَكْتَنِفُها : يُحيطُ بِها .
حَسِبَ : ظَنَّ .
مُيَمِّمٌ : قاصِدٌ .
دانَيْتُها : قَرُبْتُ منها .
البَهْجَةُ : الفَرَحُ .
سِياجٌ : سُورٌ .

طائِلٌ : فائدَةٌ .
أفلَتَ : هَرَبَ .
حِبالَتُهُ : شَبَكَتُهُ .
أبْصارٌ : أنظارٌ .
هالَهُ : خَوَّفَهُ وَفَزَّعَهُ
دِرَّتُهُ : سَوْطُهُ .
غَلِيلٌ : غَيْظٌ .
أحْفَظَهُ : جَعَلَهُ يَحْقِدُ
تَمادَى : استمرَّ
الإزْراءُ : التَّنَقُّصُ
تَسْنَحُ : تَعرِضُ
الزّادُ : الطَّعامُ
استَرَدَّ : استَرْجَعَ
مَثَّلَ : صَوَّرَ
حُظْوَةٌ : حَظٌّ
تَناهزُ : تُقارِبُ
عَمَدَ : قَصَدَ
التَّقتِيرُ : البُخْلُ
خَفْضٌ : لِينٌ

تَرَبَّصَ : انتظَرَ
تَحفَّزَ : تهَيَّأ لِلوُثوبِ
ذاتُ الفَقارِ : العَقرَبُ
زُبانَى العَقرَبِ : قَرْنُها
تَنْهالُ : تَتَتابَعُ
إثْمٌ : ذَنْبٌ
بلا طائل : بغيرِ فائدةٍ
أعدو : أجرِي
لاحَ : ظهرَ
اقتفاهُ : تَتَبَّعَهُ
يَمَّمْتُهُ : قَصَدْتُهُ
يَدْهَمُهُ : يَغْشاهُ
تَلَكَّأَ : أبطأَ وتوقَّفَ
سَنَحَ : عامَ
الأثيمُ : المُذْنِبُ
تأكَّدَ له : ثَبَتَ
آثَرَ : اختارَ
سِيماها : مَرْآها
ارْتِيابٌ : شَكٌّ

مُداعَبَةٌ : مُمازَحَةٌ
أرْجاؤُهُ : نَواحِيهِ .
رِفاقٌ : صِحابٌ
العِرْبِدُ : الحَيَّةُ
مُتداعٍ : مُتَهَدِّمٌ
لا أهْوِي : لا أسْقُطُ
انتَبَهْتُ : استَيْقَظْتُ
الحَظِيرَةُ : الزَّرِيبَةُ
مُغْلَقٌ : مُقْفَلٌ
الصَّنِيعُ : المَعْروفُ
جازَفَ : خاطَرَ
لا مَناصَ : لا مَفَرَّ
التَّشَبُّثُ : التَّعَلُّقُ
أسْدَى : قَدَّمَ
الجَهْدُ : شِدَّةُ التَّعَبِ
أقفَرَ : خَلا
تُذهِلُهُ : تُنسِيهِ .
تَصَدَّى : تَعَرَّضَ

فهرست

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس